


# صمت الكهنة

رواية



صبحى موسى

# صمت الكهنة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة

أصوات أدبية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية



* صمت الكهنة

* رواية : صبحى موسى

(332)

* تصميم الغلاف :

* الطبعة الأولى : منتصف يناير ٢٠٠٣

* رقم الإيداع : 3597/2003

الترقيم الدولى :

I.S B N 977 - 305 - 379 - 2

* المراسلات : باسم مدير التحرير

على العنوان التالى :

١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى

القاهـــرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الشركة الدولية للطباعة والنشر

ت : ٨٣٣٨٢٤٠

# صمت الكهنة

## صبحي موسى



رواية



332



# إهـــداء

إليهم . . .
هؤلاء الذين
تحمَّلوا
ضريبة صمتهم
كل هذه الأعوام .

صبحي

إذا كان لابد للحكايا من تواريخ وأماكن
فعلينا أن نصنع لها تواريخها وأماكنها الخاصة

لست أعرف مـا يمكن أن يقوله الناس عنى لكن الحقيقة هـى الشىء الوحيد الذى يدفعنى لخيانـة الصمت ، فسامحنى يا إلهى العظيم ؛ لأن السـر أعظم ممـا تحتمل أضلعى ، ووحدك تعرف أننى لا أبغـى معصيتك ، ولا أود قتل نفسى بيـن الحيَّات والثعابين . لكنها مدينتك ، ومـا سيؤول إليه ذكرك العظيم .

القلم يرتعش فى يدى ، أشعر أننى لم أقبض عليه منذ زمن بعيد ، هذا صحيح ، فليست لى علاقة به ، لكن الفرق بينه وبين الريشة ليس كبيرًا إلى هذا الحد ، فكلاهما يستطيع بين جدران غرفة مغلقة أن يعيد تشكيل العالم . الفرق الوحيد أن المداد مختلف . ذات يوم - إذا كان للأيام ذات - كنت أشعر أن الريشة أحد أصابعى ، لم تكن بعيدة عنى ، ولم أكن أمسك بها ، فكلانا ذات واحدة ، ياللسخرية أنا الآن لا أستطيع أن أكتب حرفًا واحدًا ، ما أكتبه لا فرق بينه وبين خط عجوز يتعلم الكتابة ، كم تكون الخطوط عصية علينا مادمنا فارقناها زمنا طويلا ، وكم نكون قساة على أنفسنا حين نجبرها على فعل ما لم تتعلم !! لكننى سأحاول حتى أنسى هذا الألم، وربما أنسى مديحة والكاهن ، ونفسى ، فالمرء يستطيع أن ينسى آلامه مادام بإمكانه أن ينسى .

لكن عم أستطيع أن أكتب ؟! هل أكتب عن أشمون ، عن أبى ، عن أمى التى ماتت فى الأربعين من عمرها ، أم أكتب عن الكهنة الذين اعتادوا زيارتى؟ ليس مفيدا أن يكتب المرء عن أناسٍ أحبهم طالما لن تُأتى الكتابة سوى السخرية منهم . عمٍ أكتب إذًا ؟! عم أكتب؟!

آه ، سأكتب عن الطبيب الذى يبتسم دائما فى حجرتى . حين يكون طبيبك مثل هذا الطبيب الذى يعالجنى ، فلابد أنك محظوظ بالفعل ، لأنه يتجمل بثلاث خصال ، لا توجد فى معبد عظيم كمعبد أشمون القديمة. أولها أنه ساذج تماما ويفعل كل ما يريده مريض أجمعَ الكل على أنه مجنون وربما ميت ، يلى ذلك أنه يأتى بالورق كل صباح ويضعه على المنضدة التى أحضرها منذ شرعت فى الكتابة ثم يخرج ، آخرها أنه حين يقرأ يقرأ بنهم شديد كل ما أكتب ، رغم صغر الخط وكم الأشياء التى أمحوها ثم أعيد كتابتها ، ثم لا يسألنى عن شىء كأننى لست موجودا ، وكأنه لم يقرأ .

لا أعلم لماذا أتحدث عنه بهذا الشكل رغم أننى أدين له بالجميل فى أكثر من شىء ، فقد أراحنى من صواعق الكهرباء التى كانت مقررة علىَّ كل يوم ، وكأنه قرر أن أموت بألم واحد يأتى من داخلى أفضل من الموت بأجهزة الطب . كما أنه حين عرضت عليه فكرة أن أسرى عن نفسى بالكتابة ابتسم كعادته فى هدوء وقال : « هذا عمل منهك ، ويصعب على مريض فى مثل حالتك أن يأتى به . لكن لتحاول فربما تستطيع أن تسلى نفسك فى هذه الوحدة » .

لا أحد يدرك معنى الوحدة هنا مثلى ، فلا أحد يرغب فى رؤية أناس العصور القديمة . . شعر مهوش ولحية لم تحلق منذ أزمنة ، ولا يملك سوى نوبات الصرع التى يأخذ على إثرها حقن المخدر وصواعق الكهرباء .

ليس هنا ما يمكن أن يفعله شخص مثلى ، غير مطالعة بياض الغرفة وتأمل البله الذى يملأ عيون الوافدين عليه . فكل ما هنا يقتل الرحمة وينزع من الناس إنسانيتهم . ليتهم يمنحوننى الموت ، فكم أراه

منحة يستحقها أمثالى وكم أحسد الخيل التى يطلق أصحابها عليها الرصاص ؛ لأنها على الأقل تستريح من الألم ، وياليتنى كنت واحدا من هؤلاء العماليق الذين يستطيعون أن يغرسوا خنجرا فى صدورهم ، أو يطيِّروا أنفسهم من الأدوار الشاهقة ، كى ينزلوا بسلام إلى هذا البهىّ الذى يسمونه الموت .

لا شىء إذًا يمكن أن يسرِّى عن رجل ينتظر هذا الضيف الرقيق سوى أن يرصد عدد التفاعلات التى تغلى فى رأسه كل لحظة ، هذه التفاعلات التى سوف تنفجر بها ذات مساء جميل . أعرف أن هذا اليوم يقترب ، وكم أنتظره مثلما أنتظر نهاية الغليان الذى يشبه الخطايا التى لا بد من الاعتراف بها .

بالقطع ليس مسموحا لأىٍّ من الكهنة - مهما بلغت درجته الكهنوتية - أن يبوح بأسراره ، ولو فى هيئة مذكرات ستدفن مع جثمانه الطيب . لكن الحقيقة المؤلمة قد تستدعى أن يحبس كاهن مثلى نفسه ، كى يكتب عن مستقبل مدينة الرب التى يقصدها مئات المريدين كل يوم، ليست الحقيقة وحدها ، لكنه الثقل الزائد على القلب ، فمنذ خمسة عشر عاما - حين أودعنى والدى باب المعبد فأُغلق خلفى - وتجمعات النساجين والنحاتين وملامح البيوت والشوارع ما تزال محفورة فى ذهنى . قد أكون نسيتها قليلا بعدما ملأتنى هالة القداسة المحيطة بالكاهن « رح عوم » حين قال : « عليك أن تنسى الخارج تماما ، وأن تذوب فى روح الحقيقة ، روح المعرفة للإله « أشمون » ، عليك أن تغلق فمك وتفسح قدر

ما تستطيع من قلبك لنور أسراره المقدسة . أسرار « أشمون » لا تخرج أبعد من جدران صدرك ، ولا يتردد صداها خارج هذا القفص الصغير » .

كانت يده تضرب بعنف مخالب صقر عجوز – على جدران صدرى . لم أكن أعرف ساعتها معنى الحقيقة ، ولا أن الباب الذى أغلق خلفى لن يفتح حتى بالموت . لكننى أدركت أن هذه الردهات المليئة بالصمت والظلمة سوف تتكشف نورًا حين أنسى النور الذى يملأ بيوت « أشمون » وحقولها ، وأننى سأصبح حجرًا فى معبد الإله العظيم وسرًّا من أسراره الكثيرة .

« كهنة آمون ورع يريدون الحقيقة ، فعليك أن تغلِّفها بآلاف الرموز والطلاسم حتى لا يصعد أعداؤك على كتفيك » .

هذا ما وعت عيناى على جدران المذبح حين دخلته أول مرة، وأوقفنى الكاهن المقدس وقال : ما اسمك يا غلام ؟ كان المعلمون بالأمس قد لقنونى اسما غير الذى أعرف منذ طفولتى فقلت « سنفر أشمون » لحظتها رأيت الدم يتدفق على ساعديه

وآلاف الحيات تخرج من قدميه بينما مطرقة تنزل من السماء كى تخسف رأسى .

رأيت عينه المليئة بالخواء كحارس للقبور والصمت تقول « أشمون لا يعرف الحمقى فلا تعط أعداءك سلاح موتك » . مازلت أذكر صوته للآن ، وكأنه يأتى من الجحيم ، وكأن العقارب ما تزال تتقافز من فمه، وكأننى ما زلت ذلك الطفل الذى ما زال يطالع التعاليم على جدران المذبح .

لا أدرى لماذا تلح على الذهن دائما مواقف بعينها، رغم أننا نحاول الهرب منها وإزاحتها من أمام أعيننا بنفس القوة ، مواقف كثيرة قد لا نعيها فى حينها لكننا بعد مرور الوقت تفاجئنا بالأسئلة التى تفتح السماء على الجحيم . فى اللقاء الأول بين مديحة وبينى لم أكن واعيا بما يسمح لى بإدراك الحقيقة ، لكننى شعرت أنها ليست فتاة ولا عذرية لها ، لم أشعر بالدم الذى ينساب من الدلتا فيغرق الأرض وما حولها ، لم أر أثرا لدم المذبح المقدس على ملاءتنا ، ولا رفرفة طيوره الحمر على وجوهنا ساعتها ، فقط بعض الكرمشات والنطف ، بعض السباب الذى يرطب العنف المشترك ، هذا ما انتهى إليه لقاؤنا ، لكن هروبها واختفاءها منى جعلنى أقص اللقطات وأعيد ترتيبها . كل شىء موجع بيننا ، حديثها عن غشاء البكارة الذى لا ينثقب ، عن الأصدقاء الذين سهرت معهم ، عن الدين والجنس والحياة ، آلاف الكلمات و الإيماءات التى تؤهل

المرء لعمل المفاجأة ، لكننى لم أفاجأ ؛ لأننى على الأقل لم أكن موجودا آنئذ .

لم أكن أنا أنا ، ولم تكن هى هى ، ولا الوقت هو الوقت ، قاسٍ جدا أن تحاك الخديعة كأبدع ما تكون عليه المخاتلة ، وأن تذهب الفريسة إلى حتفها - كأجمل ما تكون عليه البراءة من تجسُّد - حتى أنها تؤنب نفسها لأنها لوثت الفخ لصاحبه (*) .

ولا أدرى لماذا حينما اكتمل الجزء الأول من حيلتها ، وذهبت أطلب من والدى خطبتها رفض تماما ؟ هل كان يعلم عنا شيئا ؟ أم أنه خوفه القديم الدائم من المجهول والغرباء الذين لا يعرفهم ؟ أم لأنه تعود أن يفعل ذلك بحكمة الكهنة الكبار ، فأدرك الحقيقة ورفض أن يفصح عنها ؟ ربما لو مرت الأيام وأصبحت فى سنه ، وجاء ابنى ليطلب ذلك منى ،

(*) كان والدى مغرمًا بفعل ذلك مع بهيمته ، يركب أتانه فى الغروب ، ويرخى حبلا طويلا حتى تظن أنها هى التى تقوده ، لم تكن تدرى أنها فى نهاية الأمر تسير فى الطريق الذى يرسمه ، وفى وسعه أن يجذب الحبل مثلما يرخيه .

بالقطع سأرفض ، لكنى لن أستطيع الإفصاح عن سبب رفضى . رغم أننى سأكون ساعتها ممتلكا للحقيقة الكاملة مثلما امتلكها أبى ، ولم يفصح ، ومثلما لم يستطع « حور محب » الإفصاح عما يعرف لـ« أخن حور » .

نصحه ألا يخرج لتراتيل المساء هذه الليلة ، حاول أن يقنعه بالبرد والظلمة ، وربما كبر السن ، لكن الكاهن العجوز ابتسم فى وهن وقال : « أنت تعلم الحقيقة يا حور ، تعلم شيئًا ما عن موتى ، منذ متى والريح أو البرد والظلمة يحجبان كاهنا مثلى عن أداء واجبه الكهنوتى ، هل تخاف من شىء يا حور ، لا أظنك هذا الرجل فما هو آتٍ آت ، وأشمون لن يوقف الحياة من أجل عجوز مثلى» .

تركه يحتسى أوراق النعناع المغلى ، وأخذ عصاه ليدب على أكتاف الريح التى تصفر بالخارج ، ولكنه لم يعبر بضع خطوات حتى أضاء دمه مجسم العتمة القائم أمام المنزل ، دمٍ قانٍ من كثرة الصيام

والتراتيل ، من كثرة الصمت ، دم ينبثق على سيقان ثلاثة سهام مغروزة فى الصدر النحيل .

ما كان لحور أن يتحدث بما يعرف ، وما كان لكاهن التعاليم أن يهرب من حتفه . « هى النهاية ، النهاية يا حور ، هل هذا ما أردت منعه ، ما كنت تستطيع ، فجميعنا يسعى إلى نهايته ، وجميعنا يخطو خطوه فى ظلمة دائمة » .

بهذه الكلمات أنهى كاهن التعاليم المقدسة الحياة ، قبلما يبدأ فى حديث الصمت ، وتنطلق روحه إلى « أوزيريس » ، حيث يعبر فى مركبه الذى لا عودة منه إلا حين ينتهى كل شىء . ويعود أشمون وحيدا مثلما كان فى البدء ، لا شىء فوقه ، ولا شىء تحته ، ولا شىء يحمل عرشه سوى هذا المحيط الأزلى .

أيها الكاهن المقدس « براغ » . لتسمح
عدالتكم بقبول ابنى « هات حب » تلميذًا
فى معبد الإله العظيم .

لا يمكن للمرضى النفسيين أن يقيموا عملاً متكاملا ، حتى ولو كان كتابة هلاوسهم على هيئة مذكرات أو سيرة ذاتية ، هكذا تحدث الأطباء الذين أنهكوننى لمدة ثلاث سنوات بجلسات الكهرباء وصدماتها ، وأنابيب المصل ، والحقن الصفراء والحمراء . لا جدوى من رجل مريض بعقله ، هكذا صرختُ ذات مساء ، وهكذا انتبهوا إلى أننى أدرك الحقيقة ؛ فلست مجنونا ، لكن شيئًا مايشتعل فى رأسى ، ربما كان الورم الخبيث ، لم يمت به أحد من أهلى حسبما أعرف ، وحدها أمى هى التى ماتت فى ذروة شبابها ، أذكر جيدًا حين وضعت جوال الدقيق وصرخت « رأسى . . رأسى » ، لم تمر ساعات وأهل

الدرب بجوارها يضعون السمن البلدى فى فمها ويصرخون بها أن تفيق ، آخر ما أفاقت له أن حركت لسانها اليابس جدا وكأنه مشرف على العطب ، « أريد مسعد ، هاتولى مسعد » . وما أن دفعتنى الأيدى الكثيرة ، حتى عبرت مئات الأجساد والروائح الخانقة ، وارتميت على صدرها ، فناضلت ضد الموت لتطبع على وجهى قبلة وتطلق روحها للريح . ساعتها تمنيت لو أن رأسى تنفجر وألحق بها ، جلست أصرخ لكن « أنوبيس » لا يعيد موتاه ، وساعتها تذكرت قبلتها التى جففت الصراخ فى فمى فعلمت أن موتها لم يذهب بعيدا لكنه سكن بداخلى .

ليس هذا كل شىء ، فلدىَّ تاريخٌ طويل مع هذا المرض ، تاريخ يسبق موتها بزمن ، ففى الرابعة من عمرى كان شيئًا ما يدفعنى للعب فوق الصخرة التى تغطى البئر التى فى زريبة بيتنا القديم ، ولا أعلم لماذا كانت تضربنى حتى لا أفعل . . « تخاف على » . . هكذا كانت عيناى تستقبل الأشعة المنبثقة من روحها

آنئذ . تخاف عليَّ فتدفعنى إلى نفس الفعل ، تضربنى ، فأتحيَّن الفرصة آن خروجها وألعب . بالقطع لو أننى أخبرتها - بعد إفاقتى من الإغماء فيما بعد - أننى نزلت البئر المظلمة ولفحتنى ريح باردة ، ففقدت على إثرها وعيى ، كنت سأنال عقابا يشبه الموت عن طيب خاطر ، لا أقول إنها كانت ستغرس سكينًا فى عنقى ، أو تعلق حبلا فى أعلى السقف لتشنقنى ، لكنها بهدوء ستشيح بوجهها عنى ، وتصمت . أحمد الله أننى لم أفعل ، أحمده أيضًا لأنه ألهمنى الصمت وجعل لبعض عباده سمات المهابة ، والفصاحة ، وتصديق النفس رغم ما بهم من جهل ، وعدم معرفة للحقيقة . فحين تدخل أم لتجد ابنها الوحيد فاقدا للوعى ، فلا يسعها سوى أن تصرخ بأعلى ما لديها ؛ فيأتى الجيران ويستدعون طبيب القرية ، ويخبرهم بفصاحة العلماء أن ما حدث « بعض إرهاق وسوء تغذية » ، هؤلاء الأطباء ملائكة رحمة بالفعل ، لا لأنهم ماهرون فى الطب ؛ ولكن

لأن الله حباهم سمات الثقة بالنفس ، والجهل بأمور الآخرين .

ما حدث فى البئر كان أمرًا أهون ما فيه أن يغمى على طفل فى السادسة من عمره ، بالقطع حين تحاول رفع صخرة حاول من قبلك عشرة رجال ولم يفلحوا فى رفعها فلا بد أنك أحد أنصاف الآلهة ، وكان لابد أن يستغرق التفكير فى الحدث زمنا ما ، لكننى لم أكن مشغولا بذلك ، فقد رأيت فى بؤرة الضوء التى سمحت بها الصخرة - بعد أن تزحزحت - رأس سلم حجرى ، ووجدتنى أتحسس بقدمى الظلمةَ ، وبرودةَ الأحجار ، وصمتَ آلاف الأعوام داخل ممر يحتفى بالصمت المقدس ، وبالعتمة التى تُشق بقوة البدن . برودةٌ ليست كالبرودة لكنها تشبه رائحة الموت أو الكفن، ممر طويل ، شعرت أن الساعة قد مرت ، وأمى قد حضرت وثمة شىء ما يدفعنى ، بؤرة النور التى أمامى أقرب إلىَّ من النور الذى تركته خلفى ، فى البؤرة ثمة خمسة شخوص : امرأتان وثلاثة رجال ،

يرتدون ملابس كهنة ، كبيرهم يقف فى الأمام ، ولا شىء يطبق على المكان غير الصمت ، تمنيت لو لحظة من دفء الصخب الذى فى الخارج ، لأدرك أن هذا ليس هو الموت ، قال كبيرهم « ما اسمك » وكأنى بحثت فى الأرض من مشرقها حتى مغربها ، بطولها وعرضها ، وألوان شخوصها وساكنيها ، فلم أجد اسمًا لى ، وكأننى رسبت فى امتحان عقابه الوحيد أن أظل طيلة العمر فى هذه البرودة والعتمة ، شعرت أننى أضعف من أن أتحمل مثل هذا العقاب ، فخارت قواى ، وسقطتُ كمن ترك ثوبه يسقط على الأرض ، وجاء التابعون من اليمين امرأة ورجل ، ومن اليسار امرأة ورجل ، فأوقفونى أمام كاهنهم الذى أخرج عصا كالصولجان أو مفتاح الحياة ، وأشار إلى وجهى « نحن محكمة أشمون السفلية ، باسم الكاهن الأكبر « راح حب » حكمنا عليه بأن يرجع » .

لا أعلم كيف خرجت ، ولا كيف أُغلقت البئر ، ولم وجدتنى أمى فى باحة الدار وليس بجوار البئر ؟!

ولم لم تسألنى عن ملابسى التى اتسخت ؟!
لا أدرى ، فلا جدوى من طفل سوف تقتله ذات صباح الحمى والصرع ، سوف يقتله الفزع من الأشباح . هكذا فقدت أمى الأمل ، لكن الطبيعة تفعل دائما ما لا نتوقع .

يا إلهى ، كل ما حولى صامت ، ساكن ، لا حراك فيه كأنه المعبد القديم ، وكأنهم الكهنة المقدسون يعرفون كل شىء ولا يتحدثون . لا شىء يهزمهم أو يثير مخاوفهم ، كأنهم قطع من تماثيل الإله ، وحدها الرسوم هى التى تتحدث ، ووحدها النجوم هى التى تصيح فى الفراغ منذرة بالخراب وما ستؤول إليه أشمون مدينة الرب . وحدى أحمل الحقيقة عارية فى صدرى ، ولا أجرؤ على إعلانها ولا أحتمل إخفاءها ، فما الذى أصنعه حين أجلس على منضدة « أشمون » ، هل أصيح بهول ما أعرف أم أكتفى بالتحديق فى الجدران والصمت ! أنقذنى يا إلهى ، ياصاحب السمو فى الأعالى ، ويا مدبر الحكمة فى عقل « تحوت » الحكيم . آمين . . آمين .



لم تكن هذه الكلمات هى أول ما أسمع ، حين

كاد السقف أن ينهدم علينا ، فقد تعودت أن تتردد أدعية وترانيم فى أذنى وكأنها تأتى من عالم قديم أو بعيد ، الشيء الوحيد الواضح فيها أن الصوت الذى يرددها ليسَ لكبير ولا لصغير ، لكنه باكٍ يخرج من صدر صاحبه كالفحيح ليهدر فى أذنى ، تعودت أن أرى العديد من الفراعين أو الكهنة يطوفون حولى ، وربما يتحدثون معى أحيانا ، ولم أكن أدرى هل هو الحلم أم الحقيقة ، الحجرة نفس الحجرة ، والسرير نفس السرير ، لكن أمى ليست معى . حين حدث ذلك أول مرة لم أدر متى انقطع الحلم ، ومتى ذهبوا ، لكننى وجدتها كأن لم تكن بجانبى من قبل ، ووجدتنى بدافع من الخوف أو الفرح أحكى لها ، ضحكت وقالت أن ذلك حلم « وما تحكيش حلمك لحد ؛ علشان أختك اللى تحت الأرض لو عرفت هتأذيك » .



مرة أخرى يُطلب منى الصمت ، ليس من كهنة المعبد ، ولا رفقاء الحلم هذه المرة ، لكنها أمى .

وثمة من يعيشون تحت الأرض ولا أعرفهم ، وقد يضروننى بالفعل . . حكت لى يومها أن أحد الجيران « عجل حميدة ، ما أنت عارفه » ضرب قطة ذات مساء لأنها خطفت قطعة لحم من أمامه ، وما أن ترك الطبلية وقام ليغسل يديه ، حتى انشقت الأرض وابتلعته ، وهناك وجد خمسة من الشيوخ وسيدة جميلة تقف بجانبهم ، سأله كبيرهم « لماذا ضربت أختنا ؟ » أقسم بالله أنه لم يضربها ولم يرها إلا الآن ، فأخبروه أن القطة التى ضربها هى هذه السيدة ، وأنها رفعت دعوى بالتعدى وطالبت بالقصاص منه ، وعلى الفور تشكلت هذه المحكمة للبتِّ فى طلبها ، لم يصدق نفسه وأخذ يركع أمامهم ، ويقسم بالله أنه لم يكن يعرفها وكان يظنها قطة غريبة فأكرمها وأعطاها قبلما يعطى أولاده ، لكنها جاءت وتمسحت ، فزعق فيها أن تمشى فظلت فى مكانها حتى غافلته وخطفت نصيبه ، فلم يشعر سوى بالدم يغلى فى عروقه وانطلقت يده تعاقبها على ما فعلت ، « وها أنتم الآن

تقولون إنها أختكم وإننى تعديت عليها ، فهل أنا مخطئ » ؟

- هل أعطاك قطعة فى المرة الأولى ؟
- نعم .
- وهل خطفت منه قطعة فى المرة الثانية ؟
- نعم .
- إذًا أنت مخطئة يا أخت ، وليس على الرجل ذنب ، ووالله لو كان مخطئا ما خرج من هنا ، ولذا نحكم عليه نحن المحكمة السفلية بالعودة إلى أهله ، على ألا يحكى شيئا مما رأى أو سمع ، وإلا لن يناله سوى شر العقاب .

وفجأة وجده أهله بينهم فلم يتركوه ومازالوا يلحون عليه حتى حكى لهم ، ورغم أنهم سهروا معه واطمأنوا عليه ، إلا أنه حين نام صحا على هيئته التى تراها الآن يد ورجل مشلولتان ، وعيناه مقلوبتان ، وظهر مقوس للخلف ، ولسان معقود لا ينطق ، والله أعلم بعقله وما حدث له « زى مانت شايف حاله لا يسر عدو ولا حبيب » .

ورغم أنها كانت تحكى حتى أطمئِن ، وأنسى حلمى ، غير أنى امتلأت بالخوف ، ومهما رأيت ومهما حدث فسأكتم سرى بداخلى ولن أبوح به حتى لها ، فبدأت رحلتى مع المرض ، هلاوس وهذيان ، وصرع ، وبدأ الأطباء الحمقى يعرفون بيتنا ، ويدلون بابتسامتهم وكأنهم ملكوا كُنه الحقيقة ، مئات من الحقن وآلاف من حبات الدواء ، وعشرات الآلاف من كيزان الذرة التى تفرطها أمى كل يوم فى جيوبهم ، وبطون المشعوذين ودقات أصحاب الزار . كانوا جميعا مفيدين لأنهم يخدروننى ، كلٌ بطريقته ، حتى الأطباء أنفسهم يقنعون أبى أننى أصبت بالبرد وأهملت فى علاجه ، ويستدير أى منهم ناحيتى ليعطينى حقنة المخدر ، فأشكر له ذلك لأننى سأبتلع الكلمات فى صمت ، وأذهب مع الكهنة الطيبين .

« لا تخف من ذى سلطان ما دام سلطانى وملكى لا يزول ، ولا من فوات الرزق . . . ما دامت خزائنى لا تنفد » .

الشجاعة هى ذلك الشىء النسبى الذى يتفاوت من شخص إلى آخر ، ومن زمن إلى آخر . قديما كان المرء بوسعه أن يلقى سلاحه ويواجه عدوه المدشّن بالسيف والدرع والحربة ، وربما الحصان أيضا ، الآن لا أظنه يستطيع ذلك ، ليس لأن السيف لم يعد موجودا ؛ ولكن لأنه أصبح أكثر سرعة ، كما أن القناص أو القاتل كثيرًا ما لا يكون على قدر شجاعة المواجهة التى نأملها منه ، فلا يقول لنا قف إننى سأقتلك ، لكنه يطلق رصاصته من جوف الظلمة ، والأماكن المجهولة ؛ كى تصيبنا فى الصدر أو العنق . أعرف رجلا كانت هوايته أن يطلق الرصاص على

أصدقائه فى العنق ، لا علاقة لى به ، لكن صيته كان يملأ أشمون بكاملها ، ليس فى أيامنا هذه ولكن فى تلك الأيام التى كان قاطعو الطرق هم ملوكها . اسمه يتوافق مع جسده القصير وربما الدميم أيضا « نونو » ، هكذا كانوا يطلقون عليه ، وكأنهم يخيفون الصبية فى الدروب والحارات ، وكأن كل أشمون كانت له ولرجاله وحدهم ، ويالهذا المجد الذى يناله إنسان حين يصبح واحدًا من رجال « نونو » ، يحمل بندقيته ويمخر فى شوارع البلدة ودروبها كأنه السيد يتنزه فى مزرعته ، يدخل الزرائب فيسحب البهائم ويمشى ولا شىء أكثر ، هنالك يهرع أصحاب الزريبة إلى نونو الذى يقدر ثمن الفدية فيدفعونها ، ويعودون ليجدوا بهائمهم كما كانت . نونو ليس لصا فقط لكنه قنّاص محترف يقتل عن مسافات هائلة ، وينام أسفل السرير فيجزّ رقبة العريس ليلة زفافه ثم يختفى . . . كم حاولت عائلات أن تثأر منه لنفسها ، لكن الرعب وحده كان ينقذه دائما ، وكأنه أحد رجاله المخلصين

أو أشد أسلحته فتكًا . ذات مرة ذهبت عائلة بعد موت عريسها إلى أحد القناصة العتاة ودفعت له وأطمعته فى المزيد إذا تخلص من نونو ، وذات مساء وهم سبعة متحلقين حول النار على الساقية ، يسقون حقلهم ، وجدوا شخصا يجلس معهم ، كان نونو ، وكانت « صُرة » المال التى أعطوها لمن سيقتله تمد النار بمزيد من اللهب ، « اللى عايز ياخُد تاره ما يكريش عليه ، يبقى راجل وياخُده بإيده » . نزلت هذه الكلمات القليلة كالسيف على الألسن ، وربما كانهيار جبل على صدر رجل عجوز ، بالقطع الصمت هو سيد الأشياء ، وهو وجه العملة الآخر للموت ، حين يصبح الموت شخصا اسمه « نونو » .

« أنا ماشى دلوقت اللى عايز ياخُد بتاره يقابلنى على الجسر » . بالقطع كان الجميع يودون لو يأخذون ثأرهم ، لكنهم أخذوا بهيمتهم وتركوا الساقية تئن وحدها ليحتموا بجدران بيوتهم ، ورحيق نسائهم ، وهوّات الصمت التى لا حدود لها . عشرات الأسر

حاولت الثأر منه فأغرت أصدقاءه ورجاله فماتوا جميعًا ، كيف ؟! لا أحد يدرى ، لكن صوت الرصاص كان يدوّى فى الليل الذى لا سيد له سوى « نونو » . حتى النهار كان يهبه ساعة القيلولة إمارة له ولرجاله من بعده ، فالبهائم تخرج من الزرائب والمرابط فى هذه الساعة ، وتعود أيضًا إليها فى مثل هذه الساعة ، الكل يعرف نونو حتى أن الشيوخ لا حكاية لهم سوى أفعاله وأخباره وصفاته ، ومن أقواله « الباب الموارب ما تدخلوش ، أما الباب المقفول اكسره وادخل ، والباب المفتوح فصاحبه راجلنا » . قيل إن « محمود أبو عطية » أحد رجاله فى بلدتنا أعجبته امرأة كان نونو قد قتل زوجها ، فذهب لخطبتها فقالت له « الراجل الوحيد اللى أفكّ له ضفايرى بعد جوزى هو اللى يأخذ بتاره » ، وقيل إن « أبو عطية » رغم شجاعته وجثمانه الفارع كان ضعيفا أمام هذه المرأة ؛ فأراد أن يملأ خيالها بفروسيته فقال « أجيبلك راسه على طبق » ، مرت ثلاثة أيام وذهب

لزيارة نونو فجلس معه ، وأصر نونو أن يتناول الغذاء معه، ثم يشرب الشاى ، ويذهب إلى أحد حقوله ليعطيه « خُرجا » من البطاطس . كان المغرب يوشك على الدخول حين ركب أبو عطية على خرجه وحماره ، وودعه صديقه وسيده نونو « مع السلامة يا بو عطية » ، لم يكد محمود يقطع نصف المسافة ما بين قرية نونو وقريتنا فى غبشة المغرب ، حتى وجد نونو أمامه على أحد المدقات التى تخترق الحقول ، ساعتها علم أنها النهاية التى لا نهاية بعدها ، اضطرب قليلا ثم كثيرا فكثيرا ، ثم خرَّ من على الخرج والمسدس يشير إلى عنقه من بعيد ، بينما كلمات كالحجارة المسوَّمة تخرج من السيد الأول للإمارة ، « عايز رقبتى على طبق يا محمود طب خد » . لم يصل إلى الأرض إلا ورصاصتان تفصلان رأسه عن جسده .



الغريب أن نهايته كانت فى مستشفى ، ولم تكن فى الحقول ولا كجيفةٍ فى العراء ، وأن قاتله ابتسم فى وجهه وطعنه فى وريده، بينما هو يقول لتكن النهاية

هكذا . حين خطط لقتل ابن أحد العمد تسلق الجدران وصعد الشباك ، ونادى العريس الذى كان ملقًى على عروسه ، فما انتبه إلا والرصاصة تخترق العنق لتدفن الوجه الجميل فى أخدود الدلتا . كان العمدة مُهابًا ، وله رجال وأهل وخفراء ، فما أن سُمعت الرصاصة الغريبة حتى طوَّق الجميع البيتَ ، وأطلقوا الرصاص على جرذ يقطع الظلمة هربًا ، أصاب الرصاص جسده فألقى بنفسه فى الريَّاح ، وسبح حتى أماكن مجهولة ، وأنقذه الصيادون فيها ، ولأنه مغمى عليه أدخلوه المستشفى ، ولأن الحكومة والعمدة والقرى والفلاحين جميعًا يريدون الخلاص منه ، فقد ذهبوا إلى المستشفى ورشوا الطبيب ، بل توسلوا إليه أن يخلصهم منه ، ولأن الطبيب سمعه يهذى « مش ها يعيش واحد منهم » ، فقد أخذ حقنة المخدر وملأها بقليل من السم وذهب يدسها فى وريده ، ساعتها قال له « أنا بقيت كويس ، مش عاوز الحقنة » ، فأومأ الطبيب : دى آخر حقنة ، فقال « إذًا لتكن النهاية هكذا » .

وهكذا فإن مفهوم الشجاعة أصبح شيئا خياليا ، وفى كثير من الأحيان فرديا ، والشجعان هؤلاء الفرسان الذين انقرضوا ولم يعودوا موجودين بمفهومهم القديم ، بل إن شجاعتهم اقتصرت على فردية يمكن للمرء أن يراها شيئًا من قبيل السذاجة ، فمثلا حين ذهبت لملاقاة والد مديحة فى قصره المنيف ، كنت كمن ذهب يحارب جيوش النعمان حتى يعود لحبيبته بالنياق الحمر ، لابد أن ذلك تهور يستدعى الضحك الآن ، مثلما بالطبع قد ضحك كامل بيه على نفسه حين تصرف كأحد الممثلين فى الأفلام المصرية القديمة، ألقى الكتاب الذى يحمله ونادى أحد خدمه « يا سعيد . . يا سعيد ارموا الحيوان دا بره » .

لابد أنه كان يتصرف كنبيل يحافظ على التقاليد الراسخة فى أسرته العريقة ، بالطبع هكذا أفهمه المخرج حتى يظهر المشهد محبوكًا ، ولو أننى المخرج أو حتى الممثل فى هذه اللحظة ما كنت

سأنفعل بكل هذه الحدة ، فقط كنت سأشير بإصبعى ناحية الباب فلابد أن هذا الشخص الذى جاء من هذه الطبقة العاملة ، ليخطب ابنة نبيل مثلى ، تملؤه روح الانسحاق والشعور بالندم والخطأ ، ويود لو تأتى روح من السماء فتخرجه بأسرع ما يمكن ، فلم لا لأكون هذه الروح ؟!

على أية حال فشجاعتى انتهت بى إلى « علقة » ساخنة ، أخذتها وعدت إلى شقتى ، بينما شجاعة « حور محب » انتهت به إلى الهلاك . فحين أخبر والده أنه يعرف فتاة آمونية ، خاف عليه وحبسه فى بيته ، لكن حين أخبره بعد ثلاث سنوات أنه كان يخرج كل يوم للقائها ، وأنه لم يفلح معها فى ممارسة الحب ؛ حيث إن شيئه لم ينتصب ، فقد أخذه من يده ، وأدخله المعبد وأغلق عليه ، وفى المرة الأخيرة حين أصر على مواجهة الكاهن الأكبر كان نصيبه المرض والموت واللعنة .

المرأة هى المرأة ، فلا تفتح صدرك كله لعطرها المقدس ، فقط داعبها . واترك ابتسامة هادئة ترفرف حول هالتها من بعيد .

مديحة فتاة تبدو للوهلة الأولى تعى كل شىء ، وتفتح صدرها لكل شىء ، حتى أتفه الأشياء تهتم بها ، كما لو كانت حدثًا جللا . هذه الطبيعة التى تمتاز بها جذبتنى إليها ، جسد نحيل وعينان واسعتان ، أنف صغير وفم صغير ، ونهدان لايزيدان عن حجم برتقالة . من نفس دفعتى وإن كانت تكبرنى بعامين أو ثلاثة ، فتاة معمرة فى كليتها . حين تحدثت مع الزملاء عن الأشمونين وتاسوعهم المقدس ، ومحكمة أشمون العليا ومنزلة الكاهن الأكبر ، ذهلت لأننى أعرف كل هذا بينما هى « طالبة

الآثار » لا تعرف نصفه ؛ مما زادنى فى الحديث ، كنبى يدعو إلى ديانة جديدة فى سرية تؤدى به فى النهاية إلى إقامة دولة يكون هو حاكمها الأول ، وليس إلى الجلد أو دخول مستشفى المجاذيب .

فيما بعد علمت أنها فى كلية الآثار وتحب الفرعونيات ، وإن كانت لا تعرف عنها شيئًا ، طمأننى هذا ولكننى بدأت أتعامل بحذر، فربما يكون كهنة آمون قد دسوها علىَّ ، هراء بالقطع ، لكن ربما هى أيضا وجدت السرداب الذى يؤدى إلى كهنة آمون ، وربما يجيئون إليها مثلما يحدث لى فى النوم . هؤلاء الكهنة لا يحدهم شىء ويحركون الأمور دائما عن بعد ، ولا يستطيع أحد أن يقطع بوجودهم من عدمه .

ثمة بريق يترقرق فى عينى مديحة ، يجعل كل من يلتقى بها صديقًا من النظرة الأولى ، ومن أول مرة نجلس فيها معا كان البريق يشتعل بيننا ، بينما آلاف من العصافير الخضراء تطير فى المسافة القليلة التى تفصلنا، ولا يمكننى أن أفصح عن ذلك أمام الأصدقاء

الذين يعرفونها أكثر منى ، كما أننى غير مؤمن بحكايا الشاطر حسن وليلى ابنة الأغنياء ، فلا يمكن لفتاة ترتدى ملابس القطعة منها تنفق على عائلة كاملة أن تنظر لشاب مثلى ، ومن المرة الأولى . انطفأ البريق من عينى ورسم الصمت أخاديده على وجهى ، ولم أنتبه إلا على ضحكاتهم المتزايدة فوجدتنى أسقط من قمة البرج أسفل أقدام الذين يريدون رسم أدوار الفارس أمام حبيباتهم ، وشعرت أن المسافة التى ملأها العرق بين جسدى وملابسى تحتاجنى أن أسبح آلاف الهكتارات ، ولا أصل بينهما ، فمن الصعب على الذين يتمتعون بحصانة دائمة ضد اقتحام البشر أن يتصوروا أنفسهم ولو للحظة واحدة لعبة أو مهرجين فى بلاط الملك . لكنها - مديحة - بطبيعتها التى تهتم بأتفه الأشياء أنقذتنى راكلة آلاف السنوات من الحديث عن البروليتاريا وأبناء الذوات ومركّبات النقص وجروح الكرامة وخجل واحمرار وجوه أبناء القرى من كلمة واحدة ، « خلاص يا جماعة . . الظاهر مسعد ملوش فى التهريج . . إحنا آسفين » .

- لا أبدًا بس . . .

- ماتقلقش نفسك دول شوية عيال ، سيبك منهم .

مرة أخرى تركل آلاف الجسور والحوائط التى بنيتها ، فتمسك بيدى وتجرنى كطفل تعرفه منذ كانت تحمله على كتفها فى لفافته ، وتذهب بى إلى ركن بعيد من العالم لتحدثنى عن نفسها ، وفجأة تقول « تعرف إنت فيك شبه من الوجوه المصرية القديمة ، عينيك الصلبة ، أنفك الكبير ، وشك المسحوب ، حتى عبوسك ونحافة جسمك » .

عاد البريق إلى عينى وشعرت أننى حيًا أبحث فى معبد « أشمون » وسراديبه عن الصور والتماثيل التى تشبهنى . ياللكهنة الأغبياء طمسوا كل شىء فلا يتحدث سوى بالرمز ، الصور رمز، والشمس التى انبثقت من المحيط الأزلى رمز ، ومركبها الذى يمخر فى السماء كل يوم رمز ، الآلهة والتماثيل والعقارب رموز ، لا شىء ينطق بالحقيقة كاملة سوى الموت ، وحده هو الحقيقة التى تتحدث ، فالتوابيت

ترسم بالمقاييس المضبوطة ، والصور كأنها أخذت بالكاميرا وكأنها بطاقة مرورهم إلى العالمْ الآخر وليست رمزا لعودة الروح .

- أستاذ مسعد . . . .

مرة أخرى أفيق على صوتها ، لا أدرى ما الذى قالته ، لكنها كانت تتحدث وتتحدث ، وأشمون تأتى بطرقها وسراديبها وحوانيتها ، أشعر أننى جالس ومحكمة « أشمون » خلفى ترسم على رأسى مفتاح الحياة ، وتتلو تراتيلها المقدسة .

لم تكن « آن » سوى مساحة الظل التى تأتى من بعيد ، مساحة العشق لـ « تحوت » سيد المعرفة ، أراها دائما بين النجوم الخافتة ، تمسح براحتها صفحة السماء ، تمسح فأعرف مسار النجم وموقع خفوته ، متى يبزغ ومتى يلمع ثم ينتهى من جديد . يالهول السماء ، إن كل شىء يتمخض عن أيام وسنين ، عن حروب ودماء، كل شىء مكتوب هنا ، أيام المجد يتبعها هوان عظيم ، أيام العز يتلوها فقر ومجاعات ، ومن الظلمة يتولد النور . لكن كيف أقول إن حروبهم صغيرة لا تليق ، كيف أقول إن نجومهم خافتة ولن تضىء أكثر من مئة عام ، وأن هذه الحياة سوف تصمت ولن تنطق سوى بما تركوه من رموز ، حتى الرموز ستبزغ على فترات ثم يطويها النسيان .

ما أصعب أن يموت الكهنة دون أن يشيِّعهم أحد .

ما أصعب أن يموت العظماء دون أن يعلم بموتهم أحد .

هكذا الفراعين سيكونون كمن حفر لنفسه بئرا ثم أغلقها على نفسه ، ولا نهاية للصمت سوى الصمت ، يريدوننى أن أسكت وحين لا أفعل أُتهم بالجنون ، وأن النجوم أضلت عقلى أو أننى مهرْطِقٌ خارجٌ على التعاليم . ليتنى أستطيع أن أرى نجمى ، وحده الذى يخبرنى كيف ستكون النهاية ، وليتها تأتى الآن لترينى إياه . . .

كم أود أن أرى نجمها ، أريد أن أعرف هل حزينة هى أم سعيدة ، هل طالعها سيئ أم حسن ، ربما تكون سعيدة فأسعد لها ، أو حزينة فأحتمل همها أيضا ، لتبق الآن معى بصورتها الجميلة تماما كما تركتها عروسًا تخرج منداةً من البحر ، عروسا يلفها « حابى » بذراعيه ودثاره الفضى الجميل ، عروسا يتساقط الدر منها كلما رفعت خطوها عن الماء وكلما وضعته .

أيها الكاهن المقدس« براغ » لتسمح
عدالتكم بقبول ابنى « هات حب » تلميذا
فى معبد الإله العظيم

من كان يضحك على من ؟ لا أعرف ، أنا الآن بعد مرور خمس سنوات على انتهاء علاقتنا ، خمس سنوات لم أفارق فيها جدران هذا المستشفى ، أقول إننى لا أعرف.. ربما كان كلانا يخدع الآخر ، كلانا يحتاج إلى الآخر ، كلانا يريد الآخر.. نعم كانت تريدنى ؛ لأننى الوحيد الذى سيعطيها ما تريد دونما أن يدرك أنها أخذت ما تريد .



حين يقع الإنسان فى حبائل امرأة فإنه لا يستطيع الفكاك منها ؛ فالنسوة كهنة آخرون يحركون العالم من بعيد ، من خلف جدران معتمة ، لا أحد يرى الكاهن

ولا يسمعه لكننا نأتمر بأوامره ، نظن قليلا أننا ضحكنا عليه وفعلنا ما أردنا لكن ذلك بالضبط ما خطط له بمهارة فائقة ، مهارة لاعب شطرنج يجعل خصمه يدخل الأماكن التى يريدها من الرقعة ثم ينقضُّ عليه فى وداعة ليأخذ ما يريد ، يالضَعف الفريسة حين تسلم نفسها عن طيب خاطر ، مؤمنة بأن هذا قدرها الوحيد ، فحين تلمح الفرحة فى عين آكلها سوف تقول إنه الحب وإنها المواساة وليس ثمة سلب أو شماتة، هكذا فعلت مديحة وربما « آن » أيضا ، هل كانت تعرف ما الذى سيحدث لفتاها الرقيق ، هل كانت تعرف أنها تدفعه إلى جدران معبد لن يخرج منه حين تعرت وكشفت سرها عليه ، حين أفقدت أعضاءه صمتها وجعلتها تتيه فى الفراغ ظمأً ، وهل كانت تعرف أن عطشه سيورده موارد الهلاك لا النجاة ؟



حين استسلم « حور محب » لتعاليم الكهنة المقدسين ، كان يهرب من طلبها ويقتل عطشه فى

حب المعرفة ، وحده كان يهرب ووحدهم كانوا يندهشون من نبوغه ، فلا يمكن لكاهن لم يتم العشر سنوات بين جدران « أشمون » أن يصبح كاهن النجوم الأول . لم يكن قد تخطى الرابعة والعشرين سوى بشهور قليلة ، يجلس على أحد كراسى الثالوث المعظم ، هذه الكراسى التى لا يجلس عليها سوى الشيوخ الفانين ، وأصحاب الظهور التى تقوست ، كان طبيعيًا أن يحسده كل من فى المعبد ، فهو الوحيد الذى ضَمِن الجلوس على كرسى كبير الكهنة ، هذا الكرسى الفارغ دائمًا منذ أعوام خلت وكهنة « أشمون » لم يروا كاهنهم الأكبر ، أعوام كادوا أن ينسوا فيها شكله وملامحه . حين مات الكاهن السابق تم انتخابه من بين الثالوث المقدس « لأشمون » ، تقاليد لا يمكن العدول عنها ، الكاهن الأكبر يدنوه ثلاثة كهان يشكلون مثلث « أشمون » المقدس ، يتم اختيار أحد الكهنة العلماء ليصبح عضوا فى الثالوث المقدس بدلا منه .



لا أحد يفوق ثالوث « أشمون » فى العلم ، وإذا حدث فلن يفوقه فى الحكمة ، وهم : كاهن تعاليم

أشمون المقدسة وصاحب الرسائل العديدة فى بزوغ أنواره واتساع قدرته ، وهو الكاهن « هات نب نخت » معلمك يا « حور » ، ومعلم الكيمياء والهندسة والطب هذا الكاهن المعمر الذى اختار مكان المعبد واختط أساس قيامه ، ثم معلم السحر الذى يرأس الآلاف ، ولديه القدرات الخارقة على الإيهام ، والذى لولاه ماكان لأشمون هنا ذكر ؛ فقد حمى هجرة الأشمونيين عن الجنوب إلى الشمال ، فلم يدر برحيلهم أحد . ثم الكاهن الأكبر الذى على يديه تم الرحيل وبناء السد وتخطيط أشمون .. هكذا قال صديقى ومعلمى « حتب نخت » ذات صباح :

- كيف كان هذا ؟

- ليس مفيدا أن تبحث فى تاريخ من أصبحوا فى منزلة أعلى من البشر ، فأعمالهم لن تفيدك والبحث عنها يؤدى إلى الموت ، وشريعة « أشمون » أن من يتطلع إلى أنواره فى قدس أقداسه يمحى ذكره من بين البشر ، يكفيه فقط

أن يذكر فى محكمة « أشمون » ، ويكون شاهدا وحاكما على من يعيشون فى زمنه من البشر ، يوم تضع « ماعت » ريشتها على ميزان العدل . يكفيه أن تسجل أعماله هناك .

كانت يداه تشيران نحو قطب الشمس وكأنها تجمدت فلم تنزل حتى تمتم بالعديد من التراتيل وطلب الغفران والصفح ؛ لأنه لم يقصد الإعلان والبوح ، على الأقل لأنه يحاول أن يجرح جدران الصمت المقدس . يالهؤلاء الكهنة بقدر ما يخافهم الناس يخافون أنفسهم .

تحكى أمى أنها كانت ترى فى منامها رجالا بملابس بيضاء ، يدورون حولها وكأنهم يقرأون التعاويذ حين كاد السقف أن يقع علينا ، وأنا فى الثالثة من عمرى ، جاءها قطب الرجال .. هكذا قالت، لكزها بهدوء حتى أفاقت ورأته ما بين النوم واليقظة ، قالها بشكل آمر « خدى ابنك واخرجى » ، ولم تفعل سوى أن حضنتنى، قبل ما ينفتح جفنها كنا فى الشارع ، هذا الجفن الذى بانفتاحه رأت السقف مطبقًا على الأرض ، السقف كله ومرة واحدة على المصطبة التى كنا ننام عليها ، السقف كله مرة واحدة كأنه لم يكن على حوائط وأثقال من خشب الكازورين .

- هل هذا حقيقى يأمى ؟

- وحياتك عندى لم أفتح جفنى إلا والسقف على الأرض .

- ولماذا لم تتركوا البيت ؟!

- هو كان فيه مكان يضمنا غيره .

قالتها وغامت عيناها . كنت أرى فى السحب التى تمر على وجهها ما سمعته من حكايا ، فأبى واحد من أربعة رجال لجدى ، لم يتعلم منهم أحد ، وأوسع علم حصل عليه أحدهم هو أن يكتب اسمه ، بالقطع لم يكن أبى صاحب هذا الحظ الوافر لأنه كان صاحب خاتم، يقطعه عند ختام كل فترة حين يضيع منه ، ورغم أن جدى كان موسرا وواحدا ممن يعدون على الأصابع فى الغنى ، حسبما تقول أمى وعمى الوحيد الباقى ، غير أنه كان يرى الإنجاب ثروة غير التى يراها الناس الآن ، فكان ينجب أربعة يقسِّم أعمال الحقول بينهم ، ويجلس هو وجدتى يتسامران ، فذلك هدف ومتعة لا يستحقها سوى المفكرين أمثاله ؛ لكن جدى كان أعمق من هذه النظرة السريعة ، فدون أن يعلم كان يمارس دور الكاهن الأكبر ، هذا المختص الذى يحرك العالم من خلف الجدران المظلمة ، فالزيارات

دائما قليلة وتكون فى « المندرة » الأساسية ، ويجلس العم الأكبر لها ، وإن شاء جدى الحضور فعل ، وقليلا ما كان يحدث ، لكن إذا كان الأمر مهما يمكنه أن يتواجد دقائق بسيطة ثم يستأذن بسبب مرض ما ، ويخرج موهمًا الناس بالعودة ولا يعود ، أثناء تلك الدقائق يكون قد قال كلمته ، وربما لا يقولها ، فيأتى العم - وكثيرا ما كان يحدث - إلى « مندرة » جدتى حيث الموقد المشتعل والبخور المنطلق والسرير ذو الأعمدة والسارى ، وحيث فارق المرض جدى وأخذ يداعبها بالكلمات والضرب الخفيف على الفخذين . بالقطع لم يكن للعم أن يقتحم هذا الخدر عليهما ، فيطرق الباب أو يتنحنح قليلا وينادى « يا حاج » فيرد الجد بعد أن يكون قد أخذ سمت الوقار والهيبة المفترضة أن تبدو تجاه الأبناء ، فيحكى مسألته ، وهنا يقول له ما يفعل ، وإذا كانت هذه المناداة بعد انسحاب الحاج من الجلسة، فلا يدخل ولكنه يسأله من على الباب « انت رأيك إيه يا حاج » ، وهنا تشد

الخيوط فتتحرك العرائس ويسير الكون كما يبغى القابع في الخدر الجميل أن يكون .

لم يكن جدى الوحيد الذى يفعل هذا فى قريتنا ، لكنهم أيضا يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وكثيرا ما تكون بينهم خصومات نظرًا لتضارب المصالح، ومن ثم فالقرية تتجزأ بينهم حسب المصالح التى تربط العائلات فيها .

« لا شىء يبقى على حاله » كلمة جدتى العجوز ؛ هذه التى لم أر من مجدها سوى الضفائر الصفراء الطويلة وعطر المسك وعصا البخور ، لم أر الفطائر المدسوسة فى الزبد ، ولا اللحم الذى يضيع عليه فدان أرض كل عام ، ولا السرير ذا الأعمدة المدهونة بماء الذهب ، هذا الخدر الذى لم يره سوى جدى ، وأبنائها الأربعة من على العتبة فقط . لا شىء يبقى على حاله بالفعل ؛ فالجد مات والأرض ضاعت والأبناء تفرقوا وتقاسموا وتخاصموا ، وصاروا تابعين بعد أن كانوا متَّبعين ، وعمى الأصغر هو « صاحب

النصيب الوافر من الحياة » هكذا كان يردد كلما أراد أن يعيِّر أبى بفقره ، تزوج من فتاة من عائلة ثرية وقفت بجانبه ، فاشترى نصيب إخوته من بيت العائلة ، فيما عدا أبى ، أبى الذى لم يكن نصيبه يقيم له بيتا خارج البيت ، وهنا بدأ فى مضايقته كما ينبغى لرجل يرى نفسه « صاحب الحظ الأوفر من الحياة » . لا يخرج أكثر من حدود حجرته التى تضاء بلمبة « نمرة عشرة » ، لا تقيم بهيمته فى أكثر من نصيبه ( الربع ) حتى ولو كانت بقية الزريبة فارغة ، وليس بها ظلف خروف ، ضيوفه لا يجلسون فى « مندرة » الضيوف لأنها ملك لجدتى التى تقيم معه ، أبناؤه لا يصاحبوننى حتى لا تتسخ ملابسهم البيضاء .

ذات يوم قام الشجار العظيم لأننى أهرقت الماء فى باحة الدار « كيف يكون هذا » ؛ تجمع عمى وزوجته وضربا أمى ، حين ذهبت تشتكى لإخوته وكبار « الدرب » قالوا لها « اللى ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى ، خدى ابنك وجوزك واخرجى ،

الله يوسع على خلقه » . بالقطع لم يكن أمامها سوى هذا ، لكن من الذى أشار عليها بإقامة بيت فى الخرابة المجاورة للبيت ، لا أحد يدرى . . ! تقول أمى « عابر سبيل قالها ورحل » ، قالها وكأن أذهانهم وعيونهم تراها لأول مرة « أى والله » . . « ما تبنوها هنا فعلا » ، « أنا أجيبلكم شوية طوب » ، « وأنا من عندى الخشب » ،« وأنا البوص » ، وفجأة وبعد ثلاثة أيام يبيع أبى غرفته الوحيدة فى بيت العائلة ويسكن بيتا ثمنه عملا فى حقول أهل الدرب لمدة سنوات .

حين قرر الآباء الطيبون أن يرحلوا من بلادهم القديمة ، ويغيروا قبلة تابعيهم خوفًا وهربًا من الآمونيين ، الذين يزدادون يوما بعد يوم ، والذين سطع نجمهم على كل نجم ؛ فخفتت ديانات وماتت آلهة ، وقبل كهانٌ ملكهم ودينهم ؛ حتى إن معبدًا عريقًا كمعبد الأشمونين فى الجنوب بات السوس ينخر فى عقول ساكنيه ، وباتت المجادلة حول أهمية الحروب التى لا طائل منها سوى دفن مئات المريدين تدبُّ فى أعضاء المعبد ، حتى مجلس الثالوث المقدس سُمع فيه الشجار ذات مساء ، وحضره الكاهن الأعظم . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها أو يقابل الثالوث المعظم كلا على حدة ، لكنها المرة الأولى التى يفيق فيها خدم وكهان صغار على صوت الجدران المغلقة ، هذه الجدران التى غلفها الصمت منذ مئات السنين ، فلا أحد يعلم أكثر

مما يعلمه العامة عن المعبد ، لا أحد يدرك سر هذا التناغم فى العمل ، سر هذا التنسيق الشديد ، سر هذا الفناء فى الصمت .

هذه هى المرة الأولى التى شوهد فيها الثالوث المعظم يخرج غاضبًا ، وكل على حدة ، لا أعلم من أين سرت المعرفة لدى الجميع بما حدث هناك ، حتى أصبح اسم الكاهن « سقنن تب » مرتبطًا بالهجرة للمعبد الجديد ؛ فهو الوحيد الذى طرح فى هذه الليلة فكرة الرحيل ، فقال : « لابد لمعبد أشمون أن يبحث عن أرض جديدة ينشر فيها ديانته ، هذه الأرض لم تعد لنا ولن تكون ، كل شىء يذهب من أيدينا إلى « آمون » ، كل شىء ينبئ بزوال ملكنا » . كانت هذه الكلمات هى أول ما أفتتح به « سقنن تب » حديثه ، ظل الكاهنين « آش إيسن » و « خوم بخت » ينصتان فى غيظٍ مكتوم ، كيف يمكن لنا أن نغادر أرض الآباء ونتركها هكذا للآمونيين ؟ كيف نتنازل عن معبدنا المقدس ليدنسه الآخرون ؟

كانت هذه الأسئلة أول ما تبادر إلى ذهنيهما وأول ما نطقت به الألسن معارضة حكمة الكاهن « تب » ، خمس ساعات من ليل طوبة ولا يدفئ الجدران سوى اشتعال المناقشة . كان « تب » متكئًا على تقارير الجيش والهزائم التى نالها فى السنوات الأخيرة ، فهو المسئول عن هذا الجناح العسكرى مع الفرعون نفسه ، لكن الخروج من أرض الآباء فكرة لا ترد على قلب كاهن مبتدئ ، ولا يمكن للرعاة فى الحقول أن يسمحوا لأنفسهم أن تساورهم بها .

« الموقف جد عصيب لابد من المناورة ، هكذا علمتنا الحروب » ، قالها متوقعًا أن يحسم المعركة ، « وأى أرض تنتظرنا بعدما نترك ملكنا ومعبدنا ؟ وكيف نقنع المريدين لهذا المعبد أن « أشمون » سيغير قبلته ، وهل تظن الكاهن الأكبر يوافق على هذا ؟ » قالها ساخرًا « آش إيسن » ، قالها وما أن انتهت شفتاه من ملاطفة كلمة الأكبر وهى خارجة من بين ثناياه ، حتى انشقت جدران الغرفة ودخل المقدسون حاملين المشاعل التى تطوى أروقة الظلمة تحت أقدام الكاهن

الأكبر ، الكل بوغت وشلت أعضاؤه على ما هى عليه وكأنهم صور ليست منحوتة على الجدران لكن على المنضدة المستطيلة ، هل ذكر اسمه هو الذى أحضره ! أم أن أصواتهم التى أيقظت الجميع دون أن يدركوا خرقهم لعذرية الصمت المقدس ! الله وحده والكاهن الأعظم هو الذى يعرف ، لم يتحدث ولم يوبخ أيًا منهم ، ولو بنظرة غاضبة ؛ لأن عينيه كانتا منطفئتين تبحثان فى رخام الأرضية عن شىء ما غير الحزن ، ولو أنه ظل هكذا حتى نهاية الدهر لظلوا صخورا نُحتت على أشكال رجال واقفة ، لكن إشارته بالجلوس هى التى خلصت هذه الأحجار من الموت ، فدبت فى الأيدى والأقدام الحياةُ ، لكنها لم تمنح الوجوه أكثر من تغيُّر اللون الأسود إلى شتى الألوان ، كان الصمت هو الغلاف الذى يشمل العالم الآن سواء داخل الغرفة أو المعبد ككل ، وربما صمتت الكائنات التى تدبُّ على وجه الأرض كلها آنئذ ، الشىء الوحيد الذى قطع الموت والصمت معًا هو هذا السؤال « لماذا ارتفع الصوت فى معبد الإله

العضيم ؟ » فرغم أن الجميع شعر بأنه مكلل بالدنس غير أن الفرحة ما لبثت أن عادت إلى العيون ، إذ إن الحديث أو صوت الكلمات حين ترددت بين الجدران أعطى إشارة البدء لأن تدور العقول وتبدأ فى العمل ، إشارة البدء فى عودة الحياة إلى أصحابها ، عودة الأرواح إلى تلك الأبدان التى تحجرت وأصبحت تماثيل ، لكنها لم تلبث أن تدور حتى نزلت عليها مطرقة الحكمة الفاصلة : « أقولها لكم : هو الرحيل » .

مئات الأسئلة والأفكار كادت أن تقفز من بطونهم، مئات اللاآت و الاعتراضات كادت أن تفلق الصخر لتعلن عن نفسها لكن الحكمة دائمًا تستند إلى بركان يغلق الأفواه قبل أن تفكر العقول فى فتح الشفاه ، هكذا قال أشمون : « الأرض أرضى ، والسماء سمائى ، وأينما ذهب أبنائى فسوف يجدوننى » . هل نسى المقدسون التعاليم أم دخلت على القلوب الرهبة من آمون ؟! كانت الكلمات تتقطر من شفاه الكاهن الأكبر كالعسل المصفى ، أو كالسم الناقع فى الأبدان ، ما أن تلبث العقول أن تعود إلى

أماكنها حتى تنهمر القطرة كنوبة الفيضان التى تعم البلاد فى ليلة واحدة ، ولأن آخر الفيض ليس قطر الندى لكنه السيل العرم ، فقد قال « اذهبوا الآن ، وليأتنى المبجل « تب » وحده فى الصباح » ، وهكذا اختفت هرولات المقدسين حملة المشاعل ، وخرج المقدسون الثلاثة أبدانًا بلا أرواح أو أرواحا ذبيحة تضرب فى كل اتجاه ، ليس بحثا عن أبدانها ، ولكن عن إجابةٍ لـ « ما الذى يحدث ؟! » سنوات طويلة مرت ولا أحد يعلم ما الذى قاله الكاهن « تب » للكاهن الأعظم ، سنوات انتصر فيها الأشمونيين ، وساد السلام مع الآمونيين ، سنوات مات فيها الكاهن الأكبر ، و« تب » و « آش إيش » لكن الفكرة لم تمُت ، أن يكون لنا ملك آخر ننشر فيه ديننا ، ونلوذ إليه وقت الهزيمة ، فهذا ما حلم به المريدون فيما بعد ، وهذا ما استحث الفرعون على إرسال المبعوثين إلى أرض جديدة فى الشمال تشبه بداية الخلق ، حيث قمة اليابسة التى نبتت من الماء يعلوها معبد « أشمون »

الجديد ، وكأنه الشمس بزغت من محيطها الأزلى ، أو « رع العظيم » وقد تفتحت عنه زهرة اللوتس المقدسة .

هذا الصباح جاءنى طبيبى المبتسم دائما ، صرت أشعر بارتياح ما تجاهه ، فهو فى العموم شاب مؤدب لا يحب الحديث كثيرًا ، ربما كان أكثر مهارة من الآخرين ، على الأقل عن الذين أنهكوا جسدى ثلاثة أعوام بصواعق الكهرباء ، فقد أصبحت أفضل قليلاً عما قبل ، ولم تعد الصواعق التى تأتى من داخلى بنفس الحدة ، وربما أصبح جسدى أكثر قدرة على المشى .

سألته عن إمكانية الخروج إلى حديقة المستشفى ولو دقائق قليلة ، ابتسم فى هدوء ونظر فى الورقة المعلقة على شباك السرير ، ثم قال « بالطبع » ، ورغم أنها كلمة واحدة خرجت من فمه فى بساطة أن يلقى بورقة فى سلة المهملات ، غير أنها كانت بالنسبة لى نفخة الروح فى الجسد ، ثلاثة أعوام لا أتحرك من غرفتى هذه سوى لغرفة الصواعق ، ستة أشهر منذ مُنعت

عنى وأنا حبيس هذه الجدران ، كل يوم تأتى الممرضة بالورق الأبيض ، وبعض الأقلام كل أسبوع ، وبديناميكية واضحة تأتى كل سبت وثلاثاء فتغيِّر مفارش السرير ، وتضع غياراتى النظيفة على المنضدة إلى جانب الورق ، فأقوم فى ديناميكية مشابهة لأبدل ملابسى وأضعها فى كيس معد لذلك ، ثم أسحب الأوراق والأقلام وأجلس فى صمت .

مرة واحدة خالفت هذه الطقوس وسألتها « من الذى يدفع ثمن هذه الأوراق ؟ » ؛ فأجابت بنفس الآلية « الدكتور هشام » . حزنت ساعتها لأننى أكلف شخصا ما أشياء لاطائل منها ، لكنى شعرت أن ثمة شخص ما يضحى من أجلى ، شخص لا يريد منى شيئًا لأنه على الأقل لا يلح فى معرفة نتائج تضحيته ، أردت أن أقول لها لا تجعليه يبعثر أمواله على مريض مجنون ، لكننى شعرت أن لديها هذا الشعور ، وأن كلمتى هذه ستزيد مخاوفها ، إن لم تؤكدها تماما ، فآثرت الصمت والانزواء إلى المنضدة . فحديث كهذا

سيجعلها أكثر حيادية عما تفعل الآن . ومن ثم صرفت النظر عن الفكرة برمتها ، وقلت لو كان لى أن أرد جميله فعلىَّ أن أثبت نجاح الفكرة، علىَّ أن أساعده فى العلاج ، هذا هو الحل الوحيد ، وكلما تذكرت هذا أخذت يدى تسرح على الورق ، فأنسى ما برأسى من ألم وأكتب .

أعرف أننى لا أكتب شيئا عظيمًا ولا منسقًا ، ولكن إذا كان تصوره عن علاجى قائم على هذا الفعل فسوف أفعله ، بل إننى سأترجم كل ما أتذكر من مذكرات « حور » وأضمها لما أكتب ، فربما كانت هى سبب لعنتى ، وإذا سكبتها على الورق هدأ الغليان ، وصرت أكثر تناغمًا مع الحياة .

لا أعتقد أن مديحة أحبت اللوحة التى رسمتها لأمى لأنها تحمل الحب والمودة الذين كان يجب أن أظهرهما حين ماتت ، فلا أحد ممن اتهمونى بالجحود يمكن أن يصدق أننى أحبها أكثر مما يحب طفل أمه ، ليس لأنها كانت الملاذ الوحيد لى ، ولكنها الوحيدة التى كانت تفهمنى دون أن أنطق ، الوحيدة التى كرهت أن أوصف بالجنون ، الناس جميعًا حتى أبى أقروا ذلك ؛ وإن لم ينطقوه بأفواههم ، ربما لأنى طفلها الوحيد ، وربما لأنها كأى أم تكره أن ترزق بطفل وحيد مجنون . الخلاصة أن آلاف الأشياء والدوافع جعلتنى لا أتصور الحياة بدونها ، جعلتنى أرتبط بها أكثر مِن كل مَن حاولوا العطف علىَّ بعد رحيلها ، فالذين يمدون يد المساعدة للمرء حين يحتاجهم - ودون أن يُطلب ذلك منهم - يحتلون دائما مساحات من الود أكثر من عابرى السبيل

الذين يهللون وقت النصر ولا نراهم وقت الشدة ، بالقطع ليست أمى أكثر عبقرية من النساء والأمهات ؛ لكنها أكثر دراية ومعرفة بشخصية طفل مذبذب عنيد تملؤه الهلاوس ، ويعيش فى عالم غير الذى يعيش فيه الآخرون ، ربما كان عالما سفليا حسبما اعتادوا أن يقولوا ، فهذا معروف عنى منذ مرضت فى طفولتى ، وبالتحديد فى الوقت الذى اعتاد إخوتى أن يموتوا فيه ، وقتها أشارت عليها بعض النسوة أن تسأل العرافين ، ووقتها أشاروا عليها أن تتركنى فى المقابر ساعة صلاة الجمعة ثم تعود لتأخذنى ، هناك سيصعد السفليون ويقرأون علىَّ صلواتهم وتراتيلهم ، فيمتنع عن الأرض جسدى ، ولا أدرى هل يعنى ذلك أن تتبرع بى لهم ، أم أنه فقط يعنى مشاركتهم لها فىَّ .

ما حدث بعد ذلك جعلنى أوقن أننى نصفان ، نصف سفلى من المدينة القديمة ونصف علوى حيث أهلى وقريتى ، ولم يكن سنى يسمح لى آنئذ أن أخزن فى الذاكرة ما رأته عينى ولم أنطق به ، فطفل فى

الثانية من عمره ليست لديه ذاكرة للاستدعاء ، بقدر ما لديه من حجر ينقش عليه طلسمًا يرافقه مدى الحياة ، وحدها أمى كانت تدرك هذا ، فنصف طفل خير من لا شىء ، فرضيت بذلك وأكثر منه حين قالت « ياخُد عمرى كله بس يعيش » ، ورغم أن العرافين كانوا يبدون غير محتاجين لأكثر من ديك وأربعة أرطال من السمن ، إلا أنهم خدعوها بالفعل وأخذوا نصف عمرها وماتت ولم تبلغ الخامسة والثلاثين ، ماتت بلا سبب واضح ، سقطت أمام طلمبة المياة « رأسى .. رأسى » صرخة ضعيفة مكتومة بقدر ما تحمله من ألم ، مرة واحدة سقط الجمل وكبا الجواد . يالأبناء القرى يسقطون هكذا مرة واحدة كأنهم نوعًا من الحديد الصلب لا ينثنى ، وإذا انثنى ... كُسر ، وإذا كبا مات وحمل فى النعش ، حيث لا أدرى ملائكة هم أم كهنة .



فى الجنازة لم يكن المشهد ينم عن وفاة ثرىٍّ أو أحدٍ من كلابه ، فبالكاد كانوا يجدون من يحمل النعش ومن يغير معه ، أربعة من العجائز وأبى ، أربعة

من العجائز ونصف دستة من « المولولات » ، هؤلاء اللاتى تبرعن للعمل هذا اليوم ، بلا سبب معلوم . ليس للأمر علاقة بالكهنة هذه المرة ، فرجل فى ريعان الشباب لديه طفل مريض بالصرع - سيموت حتما عما قريب - يُعدُّ فرصة نادرة كزوج لأى منهن ، أسابيع طويلة لم ترحل « المولولات » فيها عن بيتنا ، أسابيع طويلة وهن ملائكة رحمة أنبتتها السماء لأجلنا ، لكن الرجل مات أيضا حين ماتت زوجته ، مات فلا وجود لأى من المفاتن المعروضة ببذخ فى عينيه ولا صدره ، فالرجل اجتث عضوه ووضعه فى المقبرة ، كآخر التذكارات التى يمكن أن يمنحها رجل لزوجته . كنت أظن أننى الحائل الوحيد بينه وبين الحياة ، فنبشت القبر بإبرة وقلت : لم لا تتزوج . كان القلب أشبه بالبئر التى نزلتها ، مظلما ومليئا بالهموم والصمت ، جدرانه تنشع بالرطوبة ورائحة التهدم ، حين تحرك اللسان قال « تفتكر بعد ما نموت حيكون فينا نفس للفرح . . متصدقش » .

كان البكاء هو الفعل الوحيد الذى حضرنى وقتذاك ، وكانت عظام صدره هى القبر الوحيد الذى يمكننى الدخول إليه ، عظام نخرة كغاب النراجيل فى القرى ، طردت مَن فى البيت وأغلقت الباب وجلست بين الظلمة والنور ، وبكيت ، فرأيت وجهه فى الركن المقابل يبكى .

سرت شائعة فى الدرب أننى كنت أكره أمى ، لأنها منعتنى من الموت « شفتى الجحود ، تفديه بحياتها ويعمل فيها كده » ، « من ساعة أمه ما غيرته فى الترب وأنا قلت الواد ده حيطلع مخاوى » ، « دا حتى مرضيش يمشى فى جنازتها ولا يحضر عزاها . ربنا يلطف بعبيده وما يديناش عيال جاحده زى ده » .

- أنا آسف كنت أتمنى حاجة تانية ، الصورة دى هى الشىء الوحيد اللى بيربطنى بيها دلوقتى .
- بس بشرط ترسم لى صورة دلوقت .
- صورة واحدة ! اقعدى ، فين الحامل ؟

كانت هذه هى المرة الأولى التى تطلب منى أن أرسم لها صورة ، فرغم أننا زوجان منذ ثلاث سنوات لم أفعل ، ولم تطلب هى ، كانت يدى تمشى على اللوحة كأنها تخط على وجه الماء ، لم أفكر فى إعادة خط تركته فى البياض .

حين انتهيت جلست تضحك ، فثمة وجه آخر وزىّ آخر لا أظننا نعود إليه مطلقا ، لكنه يجيؤنا من بعيد عبر الحلم والسراديب ووجوه الكهنة ، ولم تكن الريشة ريشتى ولا اليد يدى لكنها الخطوط والألوان التى تنطق بما عجز الصمت عن النطق به ، الخطوط والألوان التى ودَّعت عصر الصمت وبدأت فى الكلام بوجه « آن » الجميلة ، هذا الوجه رأيته متى ؟ أين ؟ لا أدرى ، لم يكن فى المعبد ولا الشوارع أو الحوانيت المغلقة ، لم يكن فى البيوت ولا بين « المولولات » أو نساء قريتى ، لم يكن مطلقا سوى فى الحلم وأوراق « حور » ، نعم .. فقط أوراق « حور » ولكن هل يمكن أن تصنع الأوراق كل هذا دون أن ندرى ؟ كان وجهها يضحك ، وصدرها

يضحك ، وعيناها مشدودتين إلى البعيد حيث صفحة الأفق وحيث النجوم التى ترقص فى السماء .

- أنا هسيبك النهاردة لأنك مش مضبوط ، وبكره ترسمنى أنا مش الفراعنة بتوعك .

- لأ استنى قربت أخلص .

- لا ياعم أنت مش معايا ، سلام .

حين انتهيت ، كان « موتور » عربتها يقطع مجرى الشارع بعيدًا ، ليتها انتظرت لأرى الفارق بينهما ؛ لا أظنه أكبر مما أرى بكثير ، فهى هى وأنا هو ، وكلنا شخوص واحدة تعيدها الأيام ، كلنا شخوص واحدة . الفارق الوحيد مئات السنين والسراديب المظلمة وهذا الصمت الذى يتحدث ، لاشىء يتغير فلم لا نقبل الأشياء كاملة .

فى الصباح جاءنى كاهن التعاليم القدسية ؛ ليتناول معى الحليب والفطائر الطازجة ، أشعلت قليلا من العشب ووضعت كوبين وقليلا من الشعير فيهما ، قدمت واحدًا له وسألته عن حاله ، لكنه كان مأخوذًا بتصاعد البخار من الكوب ، دقائق مرت وهو مطرق ينظر إليه ، تركته يستمتع بلحظات التأمل ،فهذا جزء من العبادة داخل المعبد ، « أن تتأمل وتفكر بصفاء ذهن فهذه نعمة من الإله عليك أن تحوزها كاملة » هكذا علمنى هو فى أيامى الأولى ، وددت لو أقولها له ، لكن هل يمكن للتلميذ مهما علا فى الرتب والدرجات أن يذكر الذى علمه بما قال ؟! كان يقرأ ما يدور بداخلى لحظتئذ ، فرفع عينيه قليلاً عن البخار ، وحدق بهدوء فى وجهى « نعم ياحور . . أن نتأمل بصفاء ذهن فهذه نعمة من الإله علينا أن نحوزها كاملة ، لكن من أين لنا هذا الصفاء ؟ أنت ترى أحوال

المعبد تزداد سوءًا كل يوم ، آمون يسطع نجمه ونحن نتوارى كل يوم ، حتى بعد أن رحلنا وجئنا إلى الشمال ، تركنا لهم الجنوب بأكمله وجئنا إلى هنا لكنهم لم يتركونا ، فالأخبار التى تتردد بين جدران المعبد لا توحى بخير عن الجيش وهزائمه ، أخبار عن الفرعون الغارق فى ضعفه غير القادر على حماية ملكه ، ليس ملكه وحده الذى يضيع ، لكنه دين بأكمله ، معبد بأسره ، ولا تشغلنا سوى الدسائس والصراعات حول الثالوث المقدس ، ومن سيخلف الكاهن الأعظم ، انظر إلى أين وصلنا ؟ كيف تحولنا إلى مهرطقين يا حور ؟ » .

شعرت بحزن الأب المقدس ، حزن يشبه حزنى ، وأسف هو جزء من أسفى ، هل يعلم ما سنصير إليه فى يوم من الأيام ؟ لا أظنه يعرف الحقيقة كاملة ، فماذا لو قلتها له ؟ هل ينسيه هذا حزنه أم سيقضى عليه ؟ لا يمكن لكاهن تخطى الثمانين من عمره أن يتقبل فكرة كهذه ، ولا يمكن أن

أقول له أن ما صنعتموه طيلة هذه السنين سوف يندثر ويموت بموتكم ، وأن تعاليم هذا المعبد هى أول ما سيُقضى عليه ، هذه السرية وهذا الصمت ، هذه الطلاسم والسكون المحكم ، كل شىء .. كيف أخبره بذلك ؟!

حين أفقت من شرودى ، وجدت وجهه الذى نحته الزمن يبتسم لى « جئت أشكو إليك حزنى ، أراك أكثر منى حزنًا » ، تأملت كوب اللبن ، كان البخار قد هدأ ، فتناولت رشفة ، وكان الشعير قد صنع مذاقه الجميل فتلذذته قليلاً وبانتباه قليل قلت : جميعنا لديه أحزانه ، لكن دعنى أسألك ياسيدى عن سبب اختيارنا هذا المكان لإقامة المعبد ؟ ابتسم قليلا ثم نظر إلى كوب اللبن ، ورفع عينيه فىَّ - أراك أحسنت ياحور ، خدعة مبرأة من الدنس سأتقبلها منك لأنى أحبك ، فأنت أفضل التلاميذ الذين علمتهم ، أو قل شاركت فى تعليمهم ، وأنت واحد من الثالوث المقدس ، وأولى بى أن أغار منك ، لكن

« أشمون » لم يخلق أبا يغار من ابنه ، لذا أحبك رغم شرودك وانعزالك وحزنك ، أقول هذا ربما بدافع من أبوتى نحوك ، فأنت لا تبدى غضبا من أحد ، ولا تبدى حبا لأحد ، أنت بيننا وكأنك لست منا ، خارج عن الزمن ، لا تنفعل بما ينفعل به الناس ، ولا تغضب مما يغضبون منه ، ولو أن هناك ما تحبه أو قل ما يتضح عليك حبه فهو معبد « أشمون » وربما « أشمون » ذاته ، لم تكن يوما ما مشغولا بالتاسوع ولا انحداره ، ولم تكن مُجيدا فى شىء بقدر إجادتك لقراءة النجوم ، الشىء الوحيد الذى تفعله بنفس إجادة الصلاة حين أراك وأنت على قمة المعبد ، مجاورا للقمة المذهبة ساهرًا تحملق حتى الصباح ، وكأنك قطعة من الحجر ، لا تشعر بالبرد ولا الثلج ، لا تشعر بالخوف ولا الظلمة اللامتناهية ، لاتشعر حتى بنفسك وأنت عائد محمومًا كل صباح ، فلا أعرف هل كنت تستطلع النجوم أم تصلى ،مرة سألنى أحد الكهنة : لماذا لا يصلى حور معنا ولا يحضر تراتيل المساء ؟

هذا السؤال الذى لم يدر بخلدى سوى هذه المرة ، تفكرت كثيرًا قبل أن أرد عليه ، ولحسن حظك كان الكاهن صبورًا وملحًّا أيضًا ، جلس بجانبى حتى استفقت، وكرر سؤاله ثانية ، فقلت العبادة ليست بالتراتيل فقط لكنها بالحب ، والحب هو الإتقان ، أحب ما ترى وأتقن ما تحب حتى تذوب فيه، فهكذا تعبد «أشمون» ، وهكذا تعرف الطريق إلى « دجحوتى » .

- لكننى ياسيدى غير راض عن نفسى .

- لا يهم فمن رضى عن نفسه كان شيطانًا يعيث فى الأرض ، أو إلهًا نزل من السماء ليمشى بين البشر ، وذلك مستحيل .

وددت لو أقول لمعلمى لا تحزن ، فما زال هناك وقت طويل ، وليست أشمون وحدها التى ستندثر ، حتى الذين سيهزموننا ويجلسون فى أماكننا هذه سيندثرون أيضًا ، لا شىء يبقى على حاله ، هكذا مشيئة «أشمون» ، وحده هو الذى سيبقى ، سيغير

جلده وأسماءه ، سيغير هيئته وينتقل من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب ، لكنه سيبقى معبودًا حتى آخر الزمان ، سيجيء من يعبدونه ومعه مئات من الآلهة ، ومعه ابنه وزوجته ، ويجيء من يعبدونه بثالوثه المقدس ، ومن لن يعبدوه أصلا أو يجعلوه المعبود الواحد ، ستجيء ثورات وأمم سيكون سيدها ، ويكون كلمة السر فيها ، كدت أقول إننى أحبه حتى أنى أضجر منه أحيانا ، أحب خلوده وذكاءه ، أحب مسايرته للأزمنة ولا محدوديته ، أحب صفاءه وقدرته ، جبروته وظلمه ، أحب رحمته وبهاءه ، أحب نوره وآلاف الصفات التى لا تنبغى لأحد غيره ، فلماذا يفعل كل هذا فى مريديه ؟ ولم يريد لهم دائمًا الصراع والموت ؟ لم لا يعلمهم بسره وأسمائه ويجعلهم يتفقون عليه ؟ ولم يرتدى آلاف الأثواب والأسماء والألوان والشعائر ؟ لم كتب عليهم كل هذا الشقاء من أجله ، وهو واحد ، هو نفسه . الآمونيون يقاتلون من أجل اسم ، والأشمونيون من أجل اسم ،

وأصحاب الأنوف المدببة الذين سيأتون من الشمال يحاربون من أجل اسم ، وهؤلاء الذين سيأتون من أقصى جنوب الشرق ، هؤلاء المعممون ذوو الأنوف الكبيرة والعيون الواسعة الذين سيدخلون بلادنا على جيادهم البيضاء ، هؤلاء الذين سيمحون كل ذكر لنا ويكرهوننا ويحبوننا فى نفس الوقت ، هؤلاء أيضًا يحاربون من أجل اسم له ، فلم كل هذا الدم ، وهل هذه مشيئته ؟!

حين أفقت لم يكن الكاهن الذى بجانبى ، بل عشرات الكهنة ، ولم يكن مذاق الشعير باللبن الذى يملأ فمى بل خليط من المرارة والعشرات من الأعشاب التى طبخت معًا ، فجعلتنى أغوص فى بحر من العرق اللزج ، وأتدثر أسفل العديد من الأغطية ، حاولت أن أقوم لكن عشرات الأيدى ، عشرات الابتسامات الواهنة، والكلمات الحزينة المجاملة منعتنى .



لم أنصت إلى شىء بقدر ما كنت أنصت إلى خوفى من أن يكونوا قد سمعوا شيئًا ، سألت بكل

ما تبقى فيَّ من عزيمة ، ما الذى حدث ؟ وحده صوت رفيق الصباح كان يشق الصمت ؛ ليهمس فى أذنى « لا شىء يا بنى ، لا شىء . . فقط تناول هذا الشراب ، وفى الغد ستصبح أفضل مما أنت » .

أين هم الآن ؟ لماذا تركونى كل هذا الوقت ؟ هل هى معهم أم أنها مؤامرة أخرى ؟ لا أعرف ، يبدو أننى مجنون بالفعل ، لكن المجنون لا ينشطر نصفين - نصف معه ونصف ضده - لأن المجنون يتسق تماما مع أفعاله ، ويوقن أن ما يفعله هو ما يجب عليه فعله ، فى هذه اللحظة وفى هذا المكان ، دون أن يسأل نفسه كيف ، ولماذا ، وما الذى سيترتب على ذلك ؟ ربما كان أسعد منى لأن اللعنة تكون على قدر الشكوك ، وشكوكى بلا حد ، ودوامة أوسع من أن يتقبلها بشر . بينى وبين الجنون شعرة ، فقط شعرة واحدة ، آه . . لوتنقطع ، سوف أصبح أسعد البشر ، وسوف تنتهى متاهتى ، تلك المتاهة التى لازمتنى طيلة حياتى ، فمثلا حين رفض أبى زواجى وهددنى

بالطرد من أبوته ، درت على وجهى فى كل الأماكن ، لا أعرف أين أذهب ولا كيف ؟ أذهب من مقهى إلى مقهى ، ومن شارع إلى آخر ، أريد أن أتخلص من نفسى ، حتى أتخلص منها ، يالها من عاهرة ، قالت ولم أصدقها ، قالت وظننتها تريد أن تثيرنى حتى نتزوج « لو عرفتنى مش هتقدر تنسانى » يومها ضحكت ، ويومها زمجرت كلبؤة عجوز وقالت « عاوز تجرب ياللا نروح شقتك » وبعفوية طفل وعناد محارب قديم قلت « هيا » . تركنا المقهى الذى كنا نجلس عليه ، تركت دفء الجهل وذهبت ، هى لعنة الكنز المغلق دائما ، ما كنت أصدق أمى حين تحكى عن الغرفة المغلقة ، الغرفة الوحيدة المحرمة ، كنت أظنه حكْى حواديت ، فأين هى القصور الآن ، وأين الذهب والفضة ؟ وكيف لأمى المنقوعة فى الفقر حتى رأسها أن ترى ذلك ؟ لكننى فتحت الباب وملأت ناظرى ، حملقت مشدوهًا بالسر ، لكننى لم أكد أشرب من النبع حتى ذهب الكأس من يدى قبلما

شبع ، فدرت مجنونا أبحث فى كل الأماكن التى عرف رائحتها ، أسأل الأصدقاء والأعداء والخدم ، سأل الطيور المهاجرة والمستقرة التى لم تخرج من قفاصها ولا مجيب . هل خدعتنى..! وهل هذا ما تريده منى ، أن أرى النبع ولا أشرب ؟ أغلقت باب شقتى على نفسى ، شهرا ؟ شهرين ؟ قل شهورا . . . لا أدرى ، حاولت أن أفنى نفسى ، يالهؤلاء العماليق الذين يمتلكون شجاعة قتل أنفسهم ، بجسارة النبلاء يضعون السكين فى قلوبهم ، أو بروحانية المتصوفة يطلقون أبدانهم كريشةٍ تهبط فى الفراغ من أحد الأبراج الشاهقة ، ليتنى أقدر على ذلك . فالجبناء مثلى لا بد أن تصيبهم لعنة الوساوس ، ولن تنقذهم أيدى الكهنة أو الملائكة ، لن ينقذهم سوى الموت .

بعد فترة أصبح الموت ينمو بداخلى ؛ فلا أشعر بما تلمسه يداى ، جاءنى بعض زملائى ، حملونى إلى بيت واحد منهم كشبح أخرجوه للتو من كهفه ، شعر طويل أشعث ، ولحية لم يمر عليها « موسىَ » منذ

أزمنة بعيدة ، جسد نحيل يكسوه السواد ورائحة العرق ، ورغم أنهم أزالوا ذلك عنى غير أننى ما زلت أرفض الحديث معهم وألعنهم . لماذا قطعوا شجرة الموت التى تنبت بداخلى ؟ أيام فقط .. وفروعها ستصطدم بسقف الروح ، أيام فقط .. وكنت سأنتهى منى ، ومن مديحة ، وجسدى ، والكهنة ، وكل شىء . ياللسفلة ، أيام .. أيام فقط ...

فى الصباح حملونى إلى المدرج ، تحدث الدكتور عن الاستلهام من الطبيعة الصامتة ، تحدث كثيرا ، وفى نهاية المحاضرة توجهنا جميعًا إلى المرسم ، قال : أريد أن أرى أفكاركم حول موضوع المحاضرة . كنت مهملاً وسعيدًا بهذا الحظ ، جلس كل منهم أمام حامل اللوحات وجلست بنفس التقليد ، كانت ابتسامة عريضة تغلف المكان ، ويرتسم جزء منها على وجوههم ، لم يقطعها سوى توجهه إلىَّ ، لم يكن صوته يخصنى ؛ لكنه كان موجهًا إلى شخص يرقص هزيلا أسفل شجرة الموت ، صوت يحثه على

قطعها « مسعد هو الإنسان الوحيد اللى يعرف معنى الاستلهام من الطبيعة الصامتة ، ها يامسعد ، مش عايزك تكلمهم عنها ، علمهم بس من خلال الريشة يتعاملوا مع الطبيعة إزاى ، وإزاى تطلع اللى جواك ع الورق » .

طأطأت رأسى ، لا أدرى لماذا ! واستدرت وليس فى ذهنى شىء ؛ لكن وجهها يتقافز ، وجوههم ، عوالمهم السفلية ، أزياؤهم القدسية ، وجه مديحة ، مفتاح الحياة ، عين الصقر حوريس ، ريشة ماعت ، قوام إيزيس ، ابتسامة « أشمون » المضيئة فى الأفق . الريشة تسرى بلا انحناء أو خطأ ، وحدها تعرف مسارها النجمى ، تعرف خرائط الجسد ، ملامح الوجه ، وحدها تنطلق بينما تنداح به الألوان ؛ فتخرج آلاف الأوضاع والأزياء ، آلاف المعانى التى تدور على وجه واحد مستدير ، ذى عيون سوداء ، وشفاه رقيقة ، وخد أسيل تنسحب عليه الدموع كحبات الندى ، هى مديحة ذات الألف

وجه ، ذات القداسة السفلية ، ذات الهروب والخيانة واللعنة . . سوف أقتلها ، سأغرس الريشة فى كل جزء منها ، سأفض تشريحها وأبصقها على اللوحة كحشرة قذرة . . . سوف . . .

لم أشعر بـ « سوف » تنتهى ، إلا وشجرة الموت تقع على جدران روحى . حين صفق الجميع بعد أيام ، أيام لم أخرج من مرسمى ، أيام لم ينجز فيها الزملاء سوى لوحة .أو لوحتين ، وتوقَّد مرسمى بعشرات اللوحات ، ذات الوجه الواحد وآلاف الدلالات ، هللوا جميعًا ، لأننى عدت حيا ، دماء تجرى وأعضاء تمرح ، ابتسامة تترقرق على الوجه ، وشموخا يصاعد . وقف المشرف منبهرا وخرجت من عالمى لأجدهم يهللون بالتهانى ، فوقفت أرد ناسيا أنى نسيت الكلام منذ زمن بعيد .



تناولنا العشاء فى أحد المطاعم وشربنا الشاى بأحد المقاهى ، وهمست صديقة فى أذنى « معايا تليفون مديحة الخاص » ، لم يكن هناك ما يثيرنى ،

بل إننى أومأت بسخرية « وأنا مالى » . أصبح الحديث ندوة عنى ، قالوا إنى أحبها ، وقلت إنها مجرد وجه جميل استخدمته ، وفى النهاية أوصلونى إلى شقتى ، وفروا منداحين فى ردهات المدينة ، وضعت أوراقى ، وجلست ككومة من الحزن الأليم ، فوقعت عينى على رقم الهاتف « هاتف مديحة الخاص » وجدتنى أمزق الورقة ، ووجدت قدمى تهرس الشارع مهرولة ، بينما يدى تضغط الأرقام بسرعة من يطلب النجدة من العالم الآخر . . .

- أيوه أنا مديحه .

- عايز أشوفك . . . .

- إنت خدتنى على خوانه .

- عايز أشوفك . . .

- يبقى نتجوز .

- إزاى ؟!

- تعالى اخطبنى ، سلام .

قال الآباء إن الرحلة كانت شاقة من الأشمونين إلى هنا ، سنوات طويلة من التخطيط والعمل السرّى ، سنوات من الصمت ؛ فلابد أن تشيد مدينة الرب دون أن يعلم أحد ، هذا المركز الجديد لابد ألا يعلم عنه الآمونيون الذين ينتشرون فى الجنوب كالريح فى الصحراء ، لاشىء يعيقهم ، وأعوانهم كالرمل ، عيونهم كذرات الغبار ، سنوات وملكهم يزداد ولا ينقص ، فرعونهم قوى ، نجمه فى صعود ، نجم مكتوب له البقاء والخلود ، ياله من حظ طيب ، نجم لن يُنسى اسمه مهما طالت الحياة .

حين أتى الكهنة المقدسون يبحثون عن الأرض التى رسمت خرائطها بدقة متناهية ، وجدوا أرضًا يعمُّها الماء لا يظهر منها سوى عشرات الأفدنة ، وبينها وبين اليابسة مسيرة ساعات ، أرضًا تحيطها الحلفاء والبردى كأنها محمية خصها الرب لمعبده ،

ربوة مرتفعة تشبة البيضة على سطح الماء ، تسكنها آلاف الطيور ، تسكنها الثعابين والتماسيح والأشجار الباسقة ، أشجار الكافور الضخمة التى تشبه الكهنة العظام ، يالها من سنوات للعمل الشاق .

فى البدء كان المعبد من طوبِ لبن ، وطمى أحمر ، وأعواد الكافور والحلفاء ، سنوات من العمل لجذب المريدين والأتباع ، سنوات من الهروب والتخفى ؛ حتى أصبح للإله أتباع وطقوس تقام كل مساء ، هنا صدر الأمر المقدس من الجنوب بإحضار حجارة من تل القلزم ، وجاء النحاتون والبناؤون وشيدوا معبدا على ثلثى الجزيرة ، معبدا يشبه المعبد القديم ، بل هو نفسه ، وكأن كهنة السحر قد نقلوه فى إحدى الأمسيات الجميلة . سنوات والأتباع يزدادون ، طقوس المعبد تقام كما أرادها « أشمون » منذ الأزل ، فماذا إذًا ؟ لا شىء سوى ما يعانيه هؤلاء المريدون حين يفيض النهر ، حين يغضب «حابى » ويأتى مزمجرًا ، لا المعبد يتسع لهم ، ولا الذين

يرحلون حتى رأس المثلث يمكنهم تأدية الطقوس ، هل نتركهم هكذا ؟ هل يترك الرب أتباعه للموت والضلال ؟ بهذه الأسئلة . . تحدث الثالوث المقدس ذات مساء ، وبهذه الأسئلة أرسل الكاهن الأكبر إلى المقدسين فى الجنوب ، شهور مضت ولم يجب أحد ، شهور ظن فيها القابعون هنا أنهم نُسيوا ، لكن المشاورات والمجاذبات كانت تطحن الأشمونيين فى الجنوب ، هل يعود الأتباع والكهنة ويتركون «أشمون» لنستمر فى حروبنا ضد الآمونيين ؟! وما الذى يمكن أن نفعله حتى تبقى بيضة الإله فى الشمال ؟ وما الذى يمكن أن نقدمه لآلاف المريدين الذين يثقون فى الرب ومشيئته؟ لو لم نمدهم لانصرفوا عنا وعادوا إلى دينهم القديم . هنا تفتق ذهن أحد الكهنة الصغار محبى العلم ، كان يدرس الأماكن ويحفظ الخرائط عن ظهر قلب ، فتساءل ذات مساء ، ماذا لو بنينا سدًا نوزع به الماء عن مدينة الرب؟ وماذا لو بنينا سورًا حول مانريده من أرض

تتبعها ؟ سرى السؤال مسرى النار فى الهشيم ، حتى ألقى به أحد الثالوث المقدس فى مجلسهم ، ودار النقاش كرحى تطحن الرءوس ، ولم يخلق الصمت سوى دخول الكاهن الأعظم ، لا أحد يعرف كيف علم ؟ لكنهم كانوا موقنين تماما أنه جاء من أجل ذلك .

الصمت هو الإله المتوج على القبور ، وأينما حل أحال الملكوت قبرًا عظيمًا ، فكان الكهنة موتى يقفون على أقدام ، لا أحد يجرؤ على التحرك ليعين الكاهن العجوز سوى خدمه المقدسين، ليس من التقاليد أن يطرف واحد منهم فى لحظة انتباه الخشوع المقدس ، دقائق مرت حتى جلس الكاهن الأعظم ، دقائق حتى عدل من جلسته ، ووضع مفتاح الحياة على وجوههم ، لحظة واحدة كان للخدم المقدسين أن يقطعوا فيها أواصر هذا الصمت ليخرجوا ، ويغلقوا الأبواب خلفهم ، ثم يعود الملك المتوج سيد الأشياء فى الغرفة ، مربع الأشمونين اكتمل ، وسيد المربع أومأ بطرفة عين للجلوس ، الآباء المقدسون

لا يميزهم عن كراسيهم سوى الهواء الذى يدخل الصدور . « باسم أشمون ، أبانا الذى فى الأعالى ، سيد الأكوان والملكوت ، وصاحب الأنفاس التى تتردد ، فتبعث فى الكائنات الحياة » هكذا بدأ الكاهن الأعظم ، وهكذا انبلج الترتيل ليقطع الصمت فى الملكوت ، سمعهم جميعًا وأنصت كقط عجوز رابض فى فناء بيت قديم ، سمعهم حتى انتهى الكلام من صدورهم وانتظرت الأذهان كلمة الرب ، دقائق كأنها الساعات ، لا عين تطرف ولا فم يهمس ، حتى الأنفاس كادت أن تتوقف ، آذانهم من الانتباه كادت تخرق السقف ، وقلوبهم لو مرت عليها دقيقة أخرى لصارت كالجبال حين تتصدع ، « فى الصباح يأتينى الكاهن الشاب » ، مفتاح الحياة هو الوحيد الذى كبل الصمت فرفع الاجتماع ، يمكنهم أن يعاونوه الآن ، أن يفتحوا الباب وينادوا الخدم ، يمكنهم أن يتنفسوا دون أن يخشوا احتكاك الهواء بصدورهم .



فى الصباح كان الكاهن الشاب « سيلاس نخت » يقف فى قدس الأقداس ، لا يعرف ما الذى أتى به

إلى هذا المكان المقدس ، الذى لا يدخله سوى الفرعون والكاهن الأعظم ، ياللبرد الذى ينبع من كل شىء ياللوحدة التى تمر بلا نهاية ، وياللصمت الذى يغلف كل شىء ، دقائق منذ تركه الكهنة المقدسون كأنهم كانوا طيفًا ثم ولى ، دقائق ليست بالدقائق لكنها دهور ، هل يخرج ، هل يصرخ، أم يموت خوفًا وصمتا ، هكذا مثلما يموت كل شىء هنا ؟ لكنه لا يعرف طريق الأبواب ، بؤرة وحيدة من الشمس تأتى ، بؤرة وحيدة تضىء المكان كأنه الظهيرة ، صرخات صقر عجوز تقطع الملكوت كل حين ، أين هو ؟! من أين يأتى ؟ لا شىء . . . فقط بعض الحركة الخفيفة التى تكشفت عن عجوز فى التسعين ، بيده مفتاح الحياة وعود من الكازورين يتكئ عليه ، « تعال يابنى ، اقترب ، لا تخف ، أنت فى حضرة « دجحوتى » الآن ، فى حضرة رب الأرباب أشمون » . . . لا أحد يعرف ما الذى دار فى هذا اللقاء ، ولا أين ذهب « سيلاس » لكنهم بعد عام – عام كامل

عقدت فيه هدنة مع الآمونيين - شاهدوا تل القلزم على رأس المثلث فى الشمال ، آلاف الجنود والبنائين ، آلاف العمال والأتباع من كل فج يأتون ، أشمون القديمة تأتى إلى أشمون الجديدة ، الجنوب يأتى إلى الشمال ، وكأن الأرض جريدة تطوى فى المساء . كان « حابى » مستكينا ، ويكاد يكون غير موجود ، ولم يمر « كيهك » حتى كان الجدار العظيم يفصل بين ذراعى المثلث ، وضلعاه قد حفرا ليوزعا الماء بعيدًا عن قبلة الأرض الجديدة ، ضلعان عميقان متسعان ، عمل جاد صامت ، ليل كالنهار ونهار كالليل ، مئات الموتى وآلاف الأحياء .

حين أتى « حابى » فى نهاية الربيع ، كان الضلعان يزدانان بالماء ، وكان الأتباع والمريدون يوسعون له المجرى خلف أشمون، وثمة نهر صغير يأتى إليها وحدها ، نهر يتسرسب من أسفل سور عملاق شيدوه ، فكانت أشمون محمية لا يقربها الآمونيون المشغولون بحروبهم العديدة فى شتى الجهات ،

ولا بعد أن يفرغوا منها ، بوابات عملاقة تفتح على الماء ، عشرون بوابة تتوسطها أبواب لدخول المريدين وخروجهم إذا كان حابى نشطًا ، تفتح البوابات كلها إذا كان ضعيفًا أو غير موجود ، رغم أن الماء بعد بناء السد بين ذراعى المثلث لم يعد موجودًا حول أشمون ، لكن « سيلاس » الذكى كان يقيم حسابا لكل شىء ، ولا يهمل قلامة ظفر تقع منه ، ليته أكمل من العمر ما كان يتمنى ، لكن الأذكياء يموتون بأسرع مما نتوقع . فلم يمر على بناء السور سوى عام واحد ، حتى رحل الجميع من حيث لا يدرى أحد ، رحلوا من حيث أتوا وتركوا مدينة الرب جوهرة فوق هذا المحيط الأزلى من الظلام والسكون ، لا شىء يقطعه سوى أنفاس المزارعين وحيواناتهم ، لا شىء يجوبه سوى « أشمون » وحراسه الليليين ، لم يبق سوى « سيلاس » أول الموتى فى معبد أشمون ، سيلاس أحد الثالوث المعظم فى كهنة أشمون الجديدة ، سيلاس الذى مات بالحمى بعد عام من رحيلهم ، حين مات وقف المعبد أربعين يومًا يردد التراتيل

لروحه الطاهرة ، وبعث بجثمانه المعظم ليحنط ويدفن في غرب أشمون القديمة ، هذه كانت رغبة الكاهن الأعظم هناك ، كم بكى ورتل الأناشيد من أجله ، كم حمل الفرعون ليصلى من أجله كل يوم ، أربعين يوما والتراتيل والأناشيد تقام على جسد سيلاس وكأن أوزيريس يعاد دفنه من جديد .

يبدو أننى كنت أفضل أمى عن أبى ، هذه حقيقة ، فهى الأقرب إلى المدينة السفلية ، وهى المسكونة بهؤلاء الكهنة أكثر منه، ربما يأتى التقارب من هنا ، وربما أيضًا من ملازمتى الطويلة للبيت ، فطفل لا يكاد يخرج من مرض حتى يدخل فى مرض لا مكان له سوى البيت ، حيث الأم التى تهدئ من روعه بالفاتحة والتعاويذ ، أما السيد « يونس أبو النور » - والدى - فلم يكن موجودًا سوى بالليل ، وأحيانا كثيرة لا أراه ، هو دائما مشغول بتجارة الماعز ، هذه التجارة التى لا تعود عليه بأكثر من التبغ الذى يحتاجه كل يوم ، فتجارة الماعز لا تزيد عن إدمان التدخين . حين نراه يستعد للخروج - قبل أن تفتح الديكة أفواهها - نظنه سيعود فى الظهيرة محملا بالبلد التى ذهب إليها ، ولكن من يراه مع رفاقه فى المهنة - وهم مختلفون حول عنزة - يود لو

أعطى كلاً منهم خمسين قرشا حتى يعود إلى أهله سالما غانما .

مرة ذهبت معه ، ركبنا والظلمة يمكن القبض عليها بأنامل اليد ، كانت رحلتنا إلى إحدى القرى المجاورة ، فى مدخلها وجدنا أربعة من الرفاق تكاملوا حتى بلغوا العشرة أو الاثنى عشر، وقفوا جميعا فى انتظار عابر يحمل عنزة ، هذا تخصصهم . فمع ظهور أول شبح يحمل عنزته على حماره أو يجرها خلفه ، تحلّقوا جميعًا حوله وبدأوا فى التفتيش الذاتى للعنزة ، التى وجدت عشرة أو عشرين يدا تجس وتقلب فيها ، ياللمسكينة ! أصبحت كالخرقة من كثرة التقليب ، حين بدأوا الشراء بدأوا من ربع الثمن ، وبدأ صاحبها الذى كان رابط الجأش فى أول الأمر يجأر فى الشارع ، يسب ويلعن اليوم الذى اشتراها فيه ، أخذوا يقنعونه أن السوق ردىء و« نزل الأرض » وليس كما كان حين اشترى ، شعرت أن الرجل من كثرة الجدال والمناهدة ، والفصال الطويل الذى لا يزيد سوى بربع الجنيه ؛

قرر أن يلقى بالعنزة فى أقرب مصرف ، حتى يستريح ، ويعوض الله عليه ، ولكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة ، فنصف الثمن خير من عنزة ميتة وامرأة تصرخ فى الدار . بعد أن حصل هؤلاء العصبة على عنزة المسكين ، بدأوا يبيعون أنصبتهم بطريقة المزاد ، وهنا يبدأ الجهد الحقيقى ، فالمجهود الذى بذلوه فى شراء العنزة لا يزيد عن عشر المجهود المبذول فى المزاد الذى يقف السوق كله حتى يرى على من يرسى فى النهاية . فى البدء أعلن أحدهم أنه سيشترى أنصبة الآخرين بقرشين لكل منهم ، فزاد آخر قرشًا ثم تلاه قرش ونصف ، ثم ثلاث تعريفات ثم .. ثم .. ثم. حتى إذا أكلت الشمسُ الرءوسَ ، باع الجميع لأحدهم العنزة التى قد تنفق منه قبل أن يصل إلى البيت . « البيعة » الواحدة قد تستغرق أربع أو خمس ساعات ، وتستهلك مجهودا يكفى لبناء برج كبرج القاهرة ، ياللمأساة فنصيب أبى لا يتعدى أكثر من سبعين أو ثمانين قرشًا ، ينفق منها ثلاثين قرشًا فى الأسواق البعيدة ، ويشترى ورقة تبغ بالباقى ، وربما

يظن المشاهد العابر أن الذى يشترى العنزة هو الرابح الوحيد . ورغم أن هذا نظريا صحيح غير أن التجارب التى ناضل فيها السيد يونس أبو النور من أجل الحصول على هذا الشرف أثبتت العكس ، فمن ناحية إما أن يكون الفلاح كاذب ومجرد حيله مسرحية إن أجادها خدع بها هؤلاء الرفاق واشتروا العنزة بما يقارب ثمنها الحقيقى ، أو ربما يترك لهم هامش ربح قليل ، ومن جهة أخرى فكثرة التقليب والرفع والرمى لا تترك العنزة تنجو بخير ، كما أن أغلب هؤلاء الرفاق خبثاء ولا يعرفون الصحبة . فقط يعرفون الأماكن الحساسة ويطلقون أيديهم فيها « فتطرح » العنزة ، أو يموت جنينها بالداخل ، أو . . آلاف الأشياء التى تجعل من اشترى وفاز هو الخاسر الوحيد ، ونادب حظه طوال العام .

إنها تجارة الماعز التى لا يمارسها سوى أقل الناس فى الأسواق شأنا ،ليس لأنهم مهانين ولكن لأن فقرهم « دكر » هكذا كان يصفهم أبى ، الذى تعلم بالخبرة أن يقف لبيع عنزة لتاجر ، أو لامرأة

لا رجل لها . لكن تجارة الماعز فى عمومها تشبه رعيها ، فلا تبقى ولا تذر ، وتأتى على الأخضر واليابس ،فلو ربح أحدهم طيلة العام ونفقت منه عنزة واحدة ما عوض خسارته ، لكنها كالتدخين « شربه كيف وإدمانه سم » هكذا قال السيد يونس أبو النور فى إحدى الأمسيات على سطح بيتنا وتحت ظلال قمر بئونة .

كان يعرف أن ما يفعله حرام ، لكن ما إن عرضت عنزة فى الصين إلا وذهب للفصال فيها ، يقسم آلاف الأيمان ويقرأ مئات الفواتح ، وإذا ربح عامًا بأكمله وضع طاقيته على جبهته وأخذ يدخن التبغ زاعمًا أنه أبو زيد فى زمانه ،رغم أنه يدرك تماما أن ما ربحه لا يزيد عن نصيب أتفه تاجر بقر فى بقرة ماتت وباعها للجزارين ، لكنه الفقر والبحث ولو عن انتصار زائف .



« بهية الصاوى » كانت على النقيض من ذلك تصلى كثيرًا ، ويحضرها الأسياد مرة فى العام ، فتقع فى باحة الدار باركة كالجمل مزبدة فى التراب ساعات

طويلة ، حتى تفيق فتنذر للسيد البدوى ، وتدق الزار ، وتقيم ليلة لأهل الله ، ولا تضع يدها فى شىء إلا وأصبح نهرًا جاريا ، تحضر الشاى بالكيلو وتلفه « قراطيس » وتبيعه للجيران ، تذهب إلى شتى الحقول والبيوت لتحمل القمح والذرة فيعطيها التاجر عرقها ويأخذه منها ، كانت دارنا أشبه بالسويقة ، فيها الخير الوفير وفيها السمن والجبن والشاى والدقيق ، وأمة من البشر يملؤها « العشم » والحب ، ولذا كانت « بهية » موجودة دائما ، سلطتها نافذة ، وقرارها صائب ، ونصائحها أمر إلهى تؤنبنا الضمائر حين نخرج عنه .

لم يكن لهذا علاقة بالمهارة والشطارة ، فكثيرات دخلن هذا المضمار وانتهين قبل أن يبدأن ، فهذه سقط عليها جوال دقيق قتلها ، وتلك ذهبت إلى السوق فضاع رأسمالها ، وأخرى حلفت خطأ وزورا فسرى اليمين فى جسدها .الأمر فقط مرتبط بهؤلاء الذين كانت تراهم فى منامها ، كانت تقول على

كبيرهم قطب الرجال ، وكثيرًا ما قالت : قطب الرجال قال اعملى كذا أو كذا ،قطب الرجال لكزنى وقال اخرجى ، قطب الرجال .... آه ... آه .. لا أستطيع .

مسكين « حور » كم عانى من معرفته ! هكذا قال الطبيب وهو يغرز فى جسدى حقنة المهدئ .أكاد أقول إننى أدمنت المخدر ، فمنذ أسابيع وأنا تنتابنى حالات عصبية حادة ، توقفت أثناءها عن الكتابة، فلا رغبة لى فى أن أمس شيئًا ، هو الاكتئاب المميت ، لكنى ما زلت أحمل بداخلى العديد من الأشياء التى تدفعنى للتخلص منها ، فها هى أشمون بصورها القديمة والجديدة تهاجمنى، هاهم الأصدقاء ينسحبون من حولى فى المدرج بينما أناملهم ترسم حول هاماتهم دلالات كثيرة ، أقلّها أننى لست طبيعيا ، أكثر ما أكرهه أن أرى العطف فى عين البشر ، عطف نابع من كونك مريضًا بينما هم يتفضلون عليك بفائض قوتهم ، فيرسمون هالات الدهشة وكأنهم يصدقونك ، لكن البريق الذى ينبع من العيون يقول ، هى الشفقة فحسب ، ربما كان هذا

سبب ثورتى على مديحة ، لا يمكن أن أحتمل العطف أكثر من خمس سنوات ، فلو أننى أحكى لحجر لصدقنى وآمن بما أقول ، حاولت أن أقنع نفسى بأنها يوما ما ستصدق ، يوما ما ستدرك أننى لا أهذى ، وأننى إنسان شاءت اللعنة أن يعرف ما لا يعرفه الآخرون ، أن يقرأ صفحات من التاريخ لا يمكن لأى من المهتمين به أن يقرأها ، وسوف يقوم بآلاف الحسابات والتخمينات حتى يعرف نصف ما أعرف ، لكن يبدو أن الناس اعتادت المعرفة الناقصة ، المعرفة التى يكملونها بأنفسهم ، فالماضى هو هذه الأسطورة التى نخترعها وليس ما كان بالفعل ، ربما يأتى آخرون تفصلنا عنهم آلاف السنين فيقومون بالحسابات والإحصاءات حتى يتوصلوا إلى نصف ما نعيشه الآن ، ولو أن أحدا منهم قُدِّر له أن يعيش معنا ويخرج عليهم بما نقوله وما نفعله وما نخافه أو نتمناه لاتهموه بالجنون ، نعم سيتهمونه بالجنون لأنها اللعنة ، لعنة توقف الزمن والحديث عما طواه الصمت والنسيان.

كم أنا خائف على هذا الطبيب ، ما زال شابا لم يتزوج ، نابغ فى عمله ومحبوب من الجميع ، مسالمٌ إلى أقصى مدى ولا يتحدث ، لكنه يريد أن يعرف كل شيء، يأكله حب الفضول - ليعرف - مثلما أكلنى ذات مساء . هل تراه منذورًا لهذه اللعنة ، ربما ، رغم أن الفارق بيننا كبير ، فلم يكن لديه بيت قديم فيه بئر ولها غطاء ، حين ذهبت أمه إلى السوق ذهب ليلعب بجواره ولسبب ما رفع الغطاء ، ووجده يرتفع معه ، رغم أنه استعصى على عشرة من رجال « الدرب » نزل يعد الدرجات أربعين درجة فى الظلام المتراكم منذ آلاف السنين ، وجد ممرًا مرق فيه مسرعا ، فرأى على البعد نورًا ، قبل أن يصل إليه ظهر خمسة من الكهنة ، قال كبيرهم : ارجع .

ليتنى رجعت ، ليتنى حين تماثلت للشفاء لم أرجع ، ولم أحص الدرجات ، ولم أذهب إلى المحكمة ، ولم أقف بثبات الذاهب إلى الموت موقنا أنه لا محيص منه ، حين سألنى كبيرهم « لماذا

أتيت ؟ » قلت : لا أدرى ، « هل مسموح لك بالرؤية ؟ » . . لا أعرف ، لكننى أود أن أرى . هناك أشار بمفتاح الحياة إلى معاونيه وقال « زنوا قلبه » . فى سرعة البرق كنت طريحًا أمامهم ، وأيديهم تعبث فى صدرى ، أخرجوا قطعة من لحم ترتعش، ووضعوها على ميزان حساس أمام ريشة قالوا فيما بعد « ماعت تحبك ، ودجحوتى يرعاك فسر على بركة أشمون » . حين أغلقوا الصدر كما كان ، وضعوا الريشة عليه وقالوا « إذا أردت الدخول فاكشف لنا عن صدرك وتمتم باسم أشمون ثلاثا ، سوف تأتينا أو نجيؤك نحن ، لكن اذهب الآن ونحن فى انتظار عودتك ، نحن خدم معرفتك ، فمقدر لك أن تعرف ما لا يعرفه غيرك ، وأن تطأ أرضًا وأقداسًا حُرِّمت على الكثيرين » .



أخاف على هذا الطبيب لأنه طيب القلب ، رحيم وذكى ، ومن فرط اهتمامه بى ؛ أشك أنه واحد منهم جاء ليصحبنى فى رحلتى الأخيرة ، من الشرق

المضىء إلى الغرب الجميل ، حيث الهدوء والصمت ، وحيث الخلود والتفانى ، فى صحبة الإله العظيم .

عدد كبير من البشر ما زال يشك فى كون الديانات سماوية أم لا ، فكل ديانة تحمل من القداسة والغيبيات ما يجعل المؤمنين بها ينزهونها عن أن تكون اختراعًا بشريا ، حتى الديانات التى نكاد أن نكون موقنين أنها ليست سماوية .فبعض الدلائل تربط هذه الديانات بروابط مشتركة ، جزء منها يجعلها سماوى وآخر يجعلها أرضى ، أما السماوى فيرتكز على وجود خالق خلق نفسه بنفسه ، ولم يكن معه أو قبله شىء ، ثم فكر فتصور الوجود ، ثم تكلم فخرج هذا الوجود إلى الحقيقة ، هكذا تحدث الفراعنة عن بدء الخلق ، وهكذا قالت اليهودية والمسيحية والإسلام ، وهكذا قال زرادشت ، وبوذا ، وكونفيشيوس . وربما لو درسنا الديانات الأفروهندية لتوصلنا إلى هذا أيضا ، فجميعها تحدث عن العقاب والثواب والحياة وما بعد الموت ، ولم تقل ديانة واحدة أن الحياة

سوف تنتهى إلى ما نحن فيه فقط ، فجميعها قال بوجود حياة أخرى يُعوَّض المظلومون فيها ، هذا الشق الغيبى لا يمكننا أن نضعه تحت المجهر لنتأكد من صحته ، كل ما نفعله هو الإيمان به هكذا ، مطلقًا ، غيبيا . وإذا كان لنا أن نفكر فليس أمامنا سوى الجانب الأرضى ، وهو عمران الأرض ، فالديانات أجمع جاءت بنصوص مختلفة حسب الزمان والمكان ، وبما يتناسب مع التطور العقلى لهذه الزمكانية ، وبما يمكن أن تقدم من رؤى يرى مريدوها أنها الحل الأمثل لإقامة العمران على الأرض ، عمران يقترب من المثالية ، ليس فيه ظالم أو مظلوم ، وإن حدث فالله سيعوض المظلومين ويحاسب الظالمين على ظلمهم ، هكذا ربما تكون الديانات جميعًا واحدة بصيغ مختلفة ، لم تختلف فى شىء سوى المظهر الذى تُؤدَى به الطقوس ، وإن كان الجوهر والمغزى واحدًا ، هذا الاختلاف يتشكل فى مكان العبادة وطرقها والزىّ الذى يصاحبها . يالها من اختلافات

تافهة ، لا تتناسب مع قدر الدماء التى تراق بسببها .

أذكر أن صديقا قال لى - ذات مساء كنا نستمتع فيه بهواء النيل وصخب الأضواء التى تتراقص على صفحته ، حينما حدثته عن الفراعنة ودياناتهم ، وكيف انزوت عنها الأضواء واندثرت بعدما اتحدت أكبر ديانتين لدى الفراعنة فى ديانة واحدة هى عبادة « آمون رع » ؛ فماتت ديانات كثيرة وارتضت آلهة كانت ذات وقت صاحبة مريدين بالآلاف أن تمارس دورًا ضئيلاً داخل منظومة هذه الديانة الجديدة ، ساعتها فكر طويلا ثم قال : لابد أن كل حضارة كبيرة أتت على حضارات كثيرة كان يمكنها أن تمارس دورًا كبيرًا ، لو لم يوقعها سوء الحظ بجوار هذه الحضارة ، ولابد أن الحضارات التى جاءت فيما بعد على أرض هذه الحضارة - وإن بدت مخالفة أو معادية لها - تأثرت بها ، بل أخذت من معالمها ونسبت إلى نفسها أو طورته بما يقنع مريدوها أنها مخالفة ومعادية ، هكذا الديانات أيضًا .

ساعتها كنت مشغولا بـ « حابى » العملاق الذى

يربط نصف القارة المظلمة بنصفها المضىء ، والذى لولاه ما كان هذا الجزء سيضىء مطلقا . تذكرت ما قاله « حور محب » عن « أشمون » الذى سيرتدى آلاف الوجوه والأسماء ، لكنه سيظل الوحيد الباقى مثلما كان فى المبتدأ ، تذكرت حديثه عن أن نهاية الأشمونيين ستكون بانهيار سد « سيلاس » وغمر الطمى أراضيهم ومبانيهم ومعبدهم العظيم ، حين قال أن رحيلهم وشتاتهم فى هذه البلاد سيبدأ ، وأن ذكرى أشمون ستخمد تمامًا حين يرفض كهنته المقدسون الدخول فى تفاوض ؛ من أجل الحصول على دور ولو ضئيل داخل المنظومة الجديدة .

تذكرت أيضًا كم أكلت الديانة المصرية من ديانات ، وكم كُتب على حضارات مجاورة ألا تظهر أو يذكرها التاريخ ، ولولا حضورها القوى لكان لهذه الحضارات شأن آخر . تذكرت حديثه عن نهاية الفراعنة على أيدى الدخلاء ومجىء أصحاب النور والظلمة إلى أراضيهم ، ثم أصحاب الأنوف المدببة ،

ثم البيض ذوى القلنسوات التى تشبه أعراف الدِيَكة ، وأظنهم الرومان ، لأنه قال سيأتون من الشمال ، أبناء عمومة لهم يهزمونهم على أرضنا ويجلسون مكانهم .

لا أعلم لم كان حور تشاؤميا إلى هذا الحد ، خصص عشرين بردية للحديث عن الفراعنة المقهورين بعد زوال ملكهم ، معلنا أنهم سيظلون عصورا طويلة محكومين من كل أجناس الأرض لكنه فى النهاية قال : « حين يطير الحديد ويتحدث ويخرج الناس منه على بعضهم بعضا ، ستكون دورة الفلك قد دارت دورتها ، وصعد المريخ إلى بروجه ثانية ، فيتولى الفراعنة حكم أنفسهم ، لكنهم سيمكثون زمنًا طويلا ، حتى يعتلى المريخ أعلى بروجه ويصيرون أمة كأسلافهم » .

ما أريد قوله الآن أن « حور » مثلما رصد التطور السياسى رصد تطور « أشمون » وأشار إلى عدد من أسمائه، ليس بالتحديد ولكن بالرمز ، وقال : إن الديانات التى ستأتى على أنقاض الفراعنة فى هذه

المنطقة ستأتى من جوف دياناتهم ، لو استطاع الناس أن يدققوا قليلا ؛ لأدركوا أنها محض تطور أو تغيُّر فى الشكل وليس الجوهر .

فتارة يُختصر التاسوع إلى ثالوث ، وتارة يكون « أشمون » وحده ويتحدث الكهنة باسمه على الأرض ، وكان متشائما ليس من هذا النوع فى الديانة ولكن من أنصارها ، فنجمهم على حد قوله سيعلو ويعلو ، حتى يستوطنوا أرض « حابى » ، ويندمجوا مع أهله فيصبحوا جزءا منه ، ويرتبط اسمه باسمهم ، هؤلاء الذين سيمحون ذكرنا ، ليس بحروبهم ، ولكن بديانتهم ، التى هى جزء من ميراثنا ، ولغتهم التى لا أصل لها فى لغتنا . سوف يأكل « حابى » كل الذين سيمرون عليه كأنهم عابرى سبل ، لكن هؤلاء نجومهم ستختلط بنجوم أبنائه فلا أكاد أفرق الآن بعضهم عن بعض .



أما الديانة الثانية التى ستتحدث باسم « أشمون » وحده ، فهى أولى الديانات التى ستخرج من هنا

بالقرب من معبد الجنوب ، حيث الغرب ، وهذا فأل سيئ فى ذاته ؛ فلا شىء يأتى من الغرب يطيب له القلب ، كما أن نجمهم سيخرج إلى الشرق حيث أرض اليبوسيين ، وهذا فأل أسوأ ؛ فلا يخرج من الغرب إلى الشرق سوى الموت ، سيبنون ملكًا ما يلبث أن ينتهى إلى الشتات ، وهناك حين يبدأ المريخ فى اعتلاء برجه ، ويعتلى الناس ظهره ؛ سوف يعودون .لكن نجمهم مثلما انطفأ من قبل سينطفئ ، لكننى لا أستطيع أن أحدد أى النجوم ستبتلعه ، فيبدو أن معرفتى لن تتخطى زمن الذى يشبهنى ، ويلتقى نجمه بنجمى ، كم أنا مشفق عليه . لكنها النجوم تقول مالا نستطيع أن نخرج عنه .

آن . . . أين أنت يا آن ؟ آلاف الأعوام وأنا أنتظر ، آلاف الأعوام ولا تأتين إلىَّ ، ولا هم يسمحون لى بالخروج ، كدت أوقن أننى سأموت ولن أرى طيفك مرة واحدة . طيفك الذى لا يفارقنى وأبحث عنه دائما ، كلما رأيت وردة سميتها « آن » ، وكلما لقيت نحاتا سألته أن يصنع لك تمثالا ، فإذا قال لى صفها ؛ عجزت عن الكلام ، وحدها الأيدى تستطيع أن تصف ما نحلم به ، ووحدهم الفلاحون فى الحقول يستطيعون أن يصنعوا الجنة التى يحلمون بها ، وحدهم النحاتون يستطيعون أن يرسموا صور حبيباتهم . ليتنى كنت واحدًا منهم ؛ لأصنع لك تمثالاً أجلس بجانبه طوال الحياة .

في المرة الأولى التي أتت فيها مديحة إلى بيتي ، كانت ممتعضة ، ورأيت في عينيها أنها شعرت بالمهانة ، فكيف تدخل سيدة مثلها بيتًا بهذا التواضع ، فشقتي لا تزيد عن حجرة وصالة في بيت صغير يقع كفاصل بين شارعين ، أظن أن صاحبه غافل الناس ليلا وبناه ، ولها أن تمتعض ، فلا أثر لرائحة عز يمكن أن أذكرها الآن . ظلت لأكثر من ساعة على تأففها من الرطوبة والتراب والطلاء المتساقط ، وحين انتهيت من عمل الشاي ابتسمت قليلاً ، وأكدت لها أن هذا البيت على عيوبه هو كل ما يحتاجه إنسان مثلي، وقدمت الشاي ساخرا « أرجو أن يليق بسمو الأميرة » ، بدأت أعضاؤها في الارتخاء ، وبدأت العصافير تطير من عينيها ، كان البريق يزداد ، وشيء ما يجذبني بشدة نحوها ، شيء ما يشبه الصمت ، ورسائل الطيور والألفة التي تزداد بين جسدين ،

خففت من حدة الجمود الذى وقعنا فيه ، ومن حدة النظر التى تخيف الكائنات منى عادة ، وسألتها عن الشاى ، فقالت لو أكلنا معه هذه ربما يكون أفضل ، كانت الشيكولاته هى آخر ما أتذكره ، فقد وضعت طرفها فى فمى وطرفها الآخر فى فمها وأخذت تطحنها بين شفاهنا ، كانت الملابس تتساقط كأوراق الخريف ، أو تسيل عن الجسد كدمع الشموع ، عاريين كالحقيقة لا ريف ولا مدنية ، لا أميرة ولا وضيع ، لا شىء سوى بهاء الأعضاء حين تتجلى فى الصمت ، وحده العرق يفوح منذ آلاف السنين ، عرق معتق توارثناه داخلنا ، ففتحنا قنيناته وتركناه يضمِّخ الوجود ، يضمِّخ لحظة الاكتشاف الأولى ، وفتحات الجسد والتأوه العظيم المتماوج كأنه بحر لا ينتهى ، وكأننى ممسوس بآلاف الشياطين التى تخصنى وحدى ، أو أننى إله عظيم للسحر ، قادر على تسخير كل شىء والعالم فى يده قطعة من العجين يشكلها كما يشاء ، مديحة ، الشيكولاته ،

السراديب ، رهج السنين ، الرجولة التى لم تتبد لأحد من قبل .

لم أكن معها بقدر ما كنت هناك ، حيث « حور محب » مرابط على صخرته فى أعلى قمةٍ للمعبد ، ينتظر « آن » لتمسح له بأناملها صفحة السماء ، فيعرف ما لا ينبغى لأحد غيره « ليلك طويل يا آن ، ونجومك خافتة ، أين تكونين الآن » . إنها معى يا « حور » ، آن معى فلا تقلِّب عينيك ، صفحة السماء ليست لك الليلة، صفحة السماء تخصنى وحدى ، فأنا أرتقيها ، وأنا سيدها ، أنا « تحوت » سيد المعرفة و « أوزيريس » سيد التخصيب .

لم أفق سوى على رهز وتقلص وأنين ووجع مكتوم ، حين نزلت كان العرق يتفصد منا ، وآثار خدوش على جسدى ، وآثار أسنان ، يالهول المفاجأة كل ما يخصنى كان بداخلها . حين نزلت كانت يدها هى التى تنزلنى ، تدفعنى عنها لكن عينيها مليئتان بفرح مبهم ، فرح يشبه الصمت ليست له طيور ،

فالطيور لا تعرف الموت ، لم تكن بنتا ، هذا ما أدركته ، فأين حفيف البكارة وخجلها الذى ينسكب فى الليلة الأولى ؟ . . . ! لا شىء سوى المهارة العظيمة وآلاف الأسئلة التى تجوب الذهن ، لم أسألها ، ولكننى شعرت بعار أن تفاجأ بأنك مخدوع ، ولم تكن فرحة عينيها تجيبنى بشىء ، كانت تحلق فى البعيد ، حيث عالم ليس فى يدى .

« آن » فِرحة وتحلق فى البعيد يا « حور » ، هل كانت فرحة حين استدَرجَتك؟ اصعد مرصدك يا سيدى ، اصعد وابحث الآن ، ف « آن » ليست معى ، آن تحلق فى البعيد وتنام معى .

بالأمس جاءوا ، منذ زمن طويل لم يأتوا ، زمن طويل لم أذهب فيه إلى البئر ، ولم أستطع السياحة فى أشمون ، لا أُدرى - فى أول مرة ذهبت فيها إلى المعبد وعرفت مرشدى - بأى لغة كانوا يحدثوننى ، ربما كانت الهيروغليفية ، وربما كانت الديموطيقية أو السريانية أو أى لغة فى العالم لا أعرفها ، لكنها كانت لغة معروفة لدىَّ ولديهم ، ربما كانت لغة الجوهر ، فدونما أن أنطق يعرفون ما بداخلى ، ودون أن ينطقوا أعرف ما يقولون ، ولم أجد تعبًا فى قراءة ما على الأعمدة ، كنت أقرأ وكأننى أقرأ كتابا اعتدت قراءته منذ الصغر . كانت أول مرة ينحنى لى فيها حامل مفتاح الحياة ، رسم على وجهى إشارات مثلثة أو مربعة وقال : مرحبًا بابن الإله ، قلت : مرحبًا أيها الكاهن ، هل يمكننى أن أدخل الآن ؟ « بالقطع

يا سيدى ؛ لكن دعنى أخبرك برفاقك فى الرحلة ، ومرشديك فى المعبد ، فهؤلاء أعضاء المحكمة السفلية » . كان ثمة كاهنين فى الأربعين من عمريهما عن يمينه ، فقال « هذان كهنة الحدود الشرقية « آت حب » و « نت بخت » ليس لأحد سلطان عليهم سوى الكاهن الأكبر » ، ثم أشار عن يساره حيث ثمة كاهن وكاهنة فى خمسينيهما فقال : هذه « إيزيس تحور » حاملة المفاتيح المقدسة ، وصاحبة الأمر المفوَّض بحراسة المعبد فى الشمال ، وهذا « أشز أور » حامل ريشة ماعت المقدسة ، والمفوَّض برعاية العدل والسلام فى الأرض من قبل - رئيس المحكمة الدنيا - الكاهن الأكبر ، قلت : وماذا عن كبيرهم ؟ دهش قليلا ثم قال « ليس لى أن أتحدث عن نفسى لكننى فيما يخصك المفوض بالسياحة معك ، وإرشادك فيما تريده يا سيدى » . كانت عظامه النحيفة البارزة تنبئ بكثرة الصيام وأداء الطقوس ، بينما التجاعيد التى تملأ يديه وأسفل عينيه وبعض الثنايا فى وجهه تدل على

الكبر ، لكن الصوت الحازم والبريق الحاد فى العين يوحى بصرامة جعلتنى أوقن أنه أحد الثالوث المعظم .

قلت فلنبدأ رحلتنا ، قال « فلتكن على بركة رب الأرباب « أشمون » ، صاحب الكلمات الخالقة والأسرار اللامتناهية ، اكشف صدرك وأظهر خاتمك الذى على قلبك ، فلا يتعرض لك الحراس » ، حين كشفت عن صدرى وأبرزت الريشة المصكوكة على جلدى ، تصاعد منها النور فأضاء السرداب حتى المعبد ، كنت أمشى وأشعر أن الأرض هى التى تمشى تحت قدمىّ ، حين اقتربنا من المعبد وجدته قطعة من الرهبة والصمت ، كل شىء ينطق بالنور وكل شىء مشرق كأنه الشمس ، سامق كأنه الإله ذاته . كانت الأعمدة ترتكز على قاعدة سداسية أو ثمانية مستديرة شامخة حتى ترتفع فى الأعالى بتيجان من اللوتس وكأنها بيضة تطفو على وجه المحيط الأزلى ، وكأن « أشمون » أطلّ على العالم من فوق كل هذا الشموخ والتسامق ، وكانت عيناى

تبتلعان الضوء كأننى أذوب فيه ، أو كأنه يتشربنى ، ضوؤه ضوئى ، بلوريته بلوريتى ، حرارته نفس حرارتى ، أنا جزء من هذا النور ، وقطعة من هذه الأعمدة ، أمخر بينها وكأنها حرس لى ، وكأن موسيقا التراتيل تنطلق من أجلى . من أين يأتى كل هذا الشموخ وهذه الموسيقا ! وأين الرفاق الآن ! . .
لا أدرى .

في زمن ما كانت لى مجموعة من الأفكار التى شكلت معتقدا قدم لى العديد من الحلول لما ينتابنى من مشكلات ، لا أستطيع الآن أن أكون كاذبًا مع نفسى ، وأقول إننى تخلصت منها تماما ، أو أنها ما زالت كما هى لدى . هى أفكار ككل الأفكار التى تنتج فى أزمنة وظروف تتطلبها ، وبعد أن تمر هذه الأزمنة ؛ ربما تهمل وتبقى بلا جدوى كذكرى قديمة نضحك عليها ، وربما يحتبسها العقل الباطن فى الذاكرة ، هذا الصندوق المظلم المحتوى على آلاف الأفكار التى تشبه الوثائق السرية أو شهود العيان على الأزمنة التى مررنا بها . ربما لو علم البعض أفكارى هذه لقتلنى ، أو على الأقل استعدى الآخرين لقتلى ، لكننى الآن وأنا مقبل على الموت - ولن أموت مرتين - يمكننى أن أسردها هى الأخرى بشىء من الصدق

يتناسب مع هذه الأوراق ، التى ربما لن يقرأها أحد ، أو ربما ستدفن بجانب جثتى مثلما كان يتمنى « حور محب » مع أوراقه .

كانت فكرتى تقوم على المحبة ومعرفة الله بالقلب ، فالله كتب على نفسه الرحمة منذ الأزل ، وهو غنى عن أفعالنا التى أمرنا بها كدليل وشاهد على محبتنا له .

فيوم القيامة سوف نسأل ونحاسب عن الصلاة والصيام ، لكن الله الرحيم لم يخلقنا حتى يعذبنا فقط ، ولو كانت هذه غايته فمن كان سيمنعه أو يحاسبه ؟ وما جدوى هذا الخلق ، وتلك الملايين من السنين التى مرت ؟ ومن ثم فقد خلقنا من أجل مهام أعظم ، وهى عمران الأرض ، هذا الذى لن يتم سوى بمحبتنا كبشر لبعضنا بعضًا ، وارتباطنا الروحى بالخالق . ولذا فالعذاب سوف يرتكز على مدى نقاء القلوب ومحبتها للخير ، فالرحيم العادل يمكنه أن يتنازل عن حقوقه ، لكنه لن يتنازل عن حقوق

الآخرين ، إلا حين يغفرونها . وكأن ريشة ماعت هى المعادل الحقيقى لدخول الجنة ، فماعت لا تهتم بالصلوات والتراتيل بقدر ما تهتم بمحبة الخير والاتجاه نحوه ، هذه هى الفكرة التى جعلتنى أكثر قسوةً على نفسى وأكثر عشقًا للبشر ، جعلتنى لا أنال شيئًا بالقهر ، فقط .. بطيب خاطر وسماحة نفس زاهدة .

يمكن للأفكار ألا تكون ذات ضرر إذا كانت خاصة، ويمكن لله أن يسامحنا على أخطائنا ما دامت تخصنا فقط ، ولِمَ ننصب من أنفسنا مرشدين ودعاة ، وكأننا امتلكنا الحقيقة ، أو تأكدنا من صدقها . لكن إذا حدث العكس فالله وحده يعلم مدى عقابه لنا ، أقول ذلك لأننى بالفعل خنت أفكارى وجلست أتحدث عنها بدلا من وضعها فى ملف لا يصل إليه أحد ، فقد نسخت منه نسخة وأعطيته لمديحة ، لا أدرى لم ؟ هل كان هذا خبثًا أم إيمانًا زائدًا بالفكرة ؟ على أية حال هذا ما حدث ، فبعد أن ذهبت إلى والدها ، كان علىَّ أن أطرد نفسى منذ اللحظة التى

وطأت فيها قدماى أول درجة رخام فى السلم الطويل المؤدى إلى الباب الزجاجى .

كنت قد وقفت أتوسل إلى البواب وأقنعه بأن المسألة ضرورية وخاصة جدًّا . فذهب على مضض ثم عاد ليقودنى كمن يؤدى عملاً مرغمًا عليه ، فسلمنى إلى آخر يرتدى بدلة سوداء وببيونة على قميص ناصع البياض ، أدركت أن هذا بمثابة مدير المنزل وليس للبواب أن يتخطى الدرجة الأخيرةمن الرخام ، فثمة طبقة كاملة يمكن أن تمحوها ببساطة الضرب بمنفضة الذباب ، منها البواب والبستانى وعمال الحديقة . أردت أن أنسحب منه حيث الأماكن التى تتناسب مع رائحتى ، لكن الشارع كان على بعد آلاف الأميال ، بينما البواب ذاب كقطعة ثلج وقعت على الأسفلت فى شهر بئونة ، ووجدتنى أنتظر « كامل بيه » هكذا بقيت وحيدًا فى العالم المكيف من كل جانب ، لحظات كأنها العمر كله وأنا أخرج وأعود فى مكانى ، وما أن رآنى كامل بيه حتى تحول وجهه الأبيض المستدير إلى رغيف حرقه الفرن توًّا .

لا أعلم ما الذى أغضبه بالضبط ، هل هى ملابسى الرثة ، أم أن لديه فكرة مسبقة عن والدى تاجر « المعيز » ، لم يقل لى اجلس ، ولم ينصت لكلمة واحدة ، فقط ابتسم في هدوء وأشعل سيجارًا ضخمًا ، وقال : بعد إذنك ، ذاب هو الآخر ليس كقطعة من الثلج ولكن كإهراق كوب ماء دافئ ، جاء بعده مدير المنزل وقام بطردى ، ولما لم أكن مستوعبًا لما حدث ، ألقى بى « السُفرجية » إلى الخارج ، وهناك تناوب البستانى وعمال الحديقة المهمة ركلاً وضربا ، حتى إذا ما لملمت نفسى من على الرصيف أمام الفيلا سمعت ضحكاتهم تنسحب إلى الداخل معلنة عن انتصار هائل .

لكن الرحمة لا تفارق قلوب البشر دائما ، فقد اقترب منى البواب فى هدوء ، وهدهد على كتفى ، ثم دس فى يدى عشرة جنيهات قائلا : « يا ابنى اطلب م الفقير تهون عليه ، وما تطلبش من دول لأنهم ما يعرفوش ربنا » . لم أستطع أن أرد له أمواله ،

ولا أن أوضح له سبب مجيئى ، حتى لا أفقد آخر علاقة لى بالبشر .

العجيب أن مديحة جاءتنى فى صباح اليوم التالى لتقطع الصمت المملوء برائحة الكهنة ، وحور محب ، وردهات أشمون . تقطع التجوال بين أعمدة المعبد ، وقراءة المتون ، والأناشيد ، ومتابعة النجوم . لم تقل شيئًا ، لكنه العناق واللهاث ، وكأن سجلا من آلاف السنين ينطوى على نفسه ، كأن المجرات تركت مساراتها لتذوب فى مدار واحد يملؤه العرق والندى والرعود ، كنا كجيشين خرجا منهزمين فى معركة واحدة . حدثتها عن معتقدى القديم ، وأن ريشة ماعت أفضل ما جاءت به الديانات ؛ لأنها تحاسب الناس على نياتهم ومدى حبهم للخير .

سألتنى لماذا لم أفعل بها كما فعل بى والدها ، قلت : لأن الله سيحاسبنا على مدى حبنا للبشر ، ودينى هو الحب ، ولا يمكننى أخذ شىء من صاحبه دون السماح لى به . قالت أننى عظيم ، قلت إنها الريشة ، قالت : تزوجنى ، قلت : على دينى ودينى

هو الحب ، قالت : ليكن الله كاتبنا ، والنجوم
شهودنا ، وريشتك الميثاق بيننا .

إن الله إذا غضب على قوم أسكنهم مدينة شبين ، فإذا زاد سخطه عليهم أسكنهم أشمون .

لا أعلم لماذا كلما مررت على أشمون تذكرت هذه المقولة ، ولا أعلم من يكون قائلها ، فقط كان عابر سبيل ، أو أحد المجاذيب الذين يطوفون حول مقام سيدى « مَدْيَن » فى مولده الذى تعمر به أشمون لمدة أسبوع كامل . قالها وعبر ، لكنها ظلت محفورة فى ذهنى ، فأتذكره وأتذكرها كلما مررت بدروبها ، ورأيت جدرانها المتآكلة ، وذبابها المتراكم .



حين تنزل هذا البلد الموبوء ، من أى مدخل شئت ، ستواجهك رائحة النتن المتخمر منذ آلاف السنين ، ربما يطل عليك من المصارف أو الشوارع

أو الجدران أو الأرض ذاتها ،وكأنها محمية طبيعية للعطن . ورغم أنها إحدى المراكز الهامة ، فلا يوجد بها غير شارع واحد مرصوف كفيل بتحويل أية عربة مهما كان نوعها إلى كارو آن عبوره لمرةٍ واحدة .

ربما كان أهل هذه المدينة أكثر ذكاء من طرقهم ، فقد أنتجوا عربات لا يناسبها سوى هذا الطريق المصاب بالجدرى فى كل سنتيمتر منه . عربات تكمن عبقريتها فى أنها لو سارت على طريق جيد لأحالته إلى طريق أشمون . ومن ثم فالمطبات التى تصنعها لن يدرى بها أحد ، فالراكب لن يشعر بأى من هذه المطبات ، لأنه سيكون منشغلا بتطبيب رأسه أو ذراعه ، وربما أماكن هو نفسه لا يكتشفها إلا فى المستشفى ، ويا له من حظ عثر ، فالحالات الأفضل هى تلك التى يغشى عليها ؛ لأنها لن تعرف ما الذى حدث لها .



قيل إن هذه العربات من مخلفات الجيش ، وربما نسى صاحب هذه المعلومة أن يقول إنها كانت دبابات

الإيطاليين الذين حاربوا عمر المختار ، وبعد أن حولها المختار إلى كومة من صفيح ، أخفاها الإيطاليون فى مكان ما حتى لا يشهد العالم فضيحتهم ، لكن سائقى أشمون ، هذه الأرواح الشريرة التى تجوب العالم ليلا وفى عز الظهيرة ، سطوا عليها ، من أين .. ومتى لا أحد يعرف ! والسؤال الآن إذا كان لا بد للانتقام من المصريين لأنهم ساعدوا المختار فى حربه ، فلماذا أشمون بالتحديد ؟ مع أنها قطعة منعزلة عن العالم ، ومازال سكانها يدعون للسلطان عبد الحميد على منابرهم .

من يقذفه الطريق الرئيسى إلى أى من الطرق الجانبية ، سيجد أشمون مجموعة من المبانى المتهالكة ، تركت الأزمنة الغابرة بصمات أرجلها عليها ، مجموعة من المبانى على سفح هضبة قمتها هى ساحة سيدى « مدين » التى يعلوها مقامه ؛ بناء حجرى ضخم له مدرج عظيم يؤدى فى النهاية إلى حجرة واحدة أمامها ساحة صغيرة بها مصطبتان ، فإذا

كتب لأيٍّ من البشر أن يجلس هناك ، فسوف يشعر أنه في جزء من الجنة ، وأن نسيمًا باردًا يأتي من النيل مباشرة إليه .

لا أدري لماذا صرخ المجذوب في تلك الليلة بتلك المقولة . ولا أدري كيف تكون الحال في المدينة التي لم أرها مطلقا وهي شبين ، ولم أستطع أن أعرف هل هي شبين الكوم أم شبين القناطر ، لكنني أدركت أنه لا توجد بلدة خلقها الله أسوأ من أشمون .

حين أرادت الدولة أن تخفف من وطء اللعنة بإنشاء صرف صحي ، أبت اللعنة أن تزول ، فما أن حفروا حتى تحولت الحفر إلى ترع ، وما أن سحبوا الماء حتى كادت البيوت جميعًا أن تنهدم، فأمر مجلس المدينة بوقف الحفر وترك الحال كما هي عليه ، فصارت اللعنة لعنتين ، وما من مار إلا وقال « يلعن دي بلد » . أما المقاول الذي خسر في المشروع ما خسر فقد سمعه الناس يقول : « يلعن أبو اليوم اللي شفت فيه البلد دي » .

المرة الأولى التى رأيت فيها أشمون ، كنت فى المدرسة الإعدادية ، وقررت المدرسة مشاهدة فيلم تعليمى هناك ، تحينت الفرصة وغافلت المدرس والأصدقاء وتركت لقدميَّ العنان فى الدروب الجانبية ، إنها أشمون التى رأيتها أكثر من مرة فى الحلم ، أشمون التى ذهبت إليها فى السراديب ، ومن أجلها طبع على قلبى خاتم الحياة ، إنها أشمون فكيف أسيح فيها ، فليأت الكهنة الآن ، فليأت مرشدى ، فليأت « حور محب » و « سيلاس » وكل الذين أحضروا أحجارها من الجنوب ؛ لا شىء سوى سكارى لا يعلمون إلى أين يذهبون ، لا شىء سوى ذباب هائج ، قذر متراكم ، أقدام تدهس أقداما ، وحشرات تعلو حشرات ، موت يعلو الموت ، أسفله موت وبجانبه موت ، فكيف يعيش الكاهن الأكبر فى مدينة كهذه ، كيف يبقى « سيلاس » و « حور » و « حت تب » ، وآلاف من الكهنة المقدسين ، كيف وهذه الجدران تأكلها مياه الصرف ، والحوائط مصابة بالكلح والنشع ، البيوت لا تزيد عن دورين ، الأول

أسفل الأرض ، والثانى تكاد الأقدام تدوس قمته ، الشيء الوحيد الذى يوحى بأنها مدينة هو وجود السيدات السافرات فيها . لعن الله المدن التى لا تُعرف سوى من سيداتها ، هكذا صرخت ساعتها .

لم تكن هذه هى المرة الأخيرة ، فقد وجدتنى أتحيَّن الفرص حتى أراها ، ربما أرى « حور » . حتى أبى ساعدنى على ذلك ، فصحبنى إلى مولد سيدى « مدين » وفى الليلة الكبيرة سمعت المجذوب صارخا : إن الله إذا غضب على قوم أسكنهم مدينة شبين ، فإذا زاد سخطه عليهم أسكنهم أشمون . ومن ساعتها وأنا أعشق هذه المدينة التى توارثتها لعنة الرب منذ الأزل .

تكررت زيارتى إلى المعبد بصحبة أصدقائى الكهنة ، لكننى لا أعرف أكان هذا بالجسد أم بالروح ، فعادة ما كانوا يجيئون إلى غرفتى بعد وفاة أمى ، وعادة ما كنت أذهب إليهم فيحدثوننى عن تاريخ المعبد وساكنيه ، وما كنت أفكر فى مكان حتى أجدنى هناك أتأمل ما عليه من رسوم ، وما يعلوه من تراتيل . فقط كان علىَّ أن أفك أزرار قميصى ، وأكشف عن ريشتى ، حينها أكون حيثما أفكر ويكونون معى حيثما أحتاجهم ، هذا الاحتياج الذى شعرت به متزايدًا بعد فقدانها ، فحين ترحل أم عن طفل لم ير العالم إلا من خلالها فلا بد أنه يشعر بالكثير فى الرغبة فى المؤانسة ، ومن ثم وجدتنى فى العالم الآخر ، حيث السياحة والحكايا عن المريدين والمزارعين والفقراء يلتمسون دخول الجنة ، وحيث

الكهنة يديرون العالم من الحجرات المظلمة ، وحيث الترتيب الكهنوتى المحكم ، وكأنه عبادة أخرى فى معبد « أشمون » المقدس .

سياحة دخلت فيها بيوتا يلفها البرد والصمت على حواف الهضبة المقدسة ، بيوت الكهنة التى تتوسطها بارتفاع قليل دائرة المعبد ، بيوت من الطمى الواطئ المفتقر إلى التنسيق من الخارج لكنها فى داخلها لا تقل روعة عن أىٍّ من قاعات الملوك ، ولا يمكن أن تعرف من أين تأتيها كل هذه الروعة على قلة أثاثها وزخارفها ومقتنياتها المهمة ، هل هو الهواء الطازج الذى يهبُّ من الشرق حيث الشرفات وفتحات التهوية ! أم أنه التناسق الشديد للأثاث ! وكأن كل قطعة منه قد وضعت بحسابات فلكية تجعلها تعزف سيمفونية ما تأتى من مكان بعيد ، أم هو الصمت والهدوء وأصداء التراتيل التى ما زالت تترد إلى الآن بين الجدران ، وكأن أصحابها قد فارقوها لحظة دخولى إليها . كان الضوء منسرحا على باحة البيت

وحجراته طيلة اليوم ، والشمس لا تفارقه سواء من الشرق أو الغرب ، وبنفس مساحة الضوء ، حين تتجه إلى أى من هذه البيوت تراه على بعد نقطة ضئيلة متكئة على الفراغ ، وكأنه كوخ أحد الصيادين أو المزارعين الفقراء ، حين تقترب يطالعك باب كبير يشبه أبواب السور المضروب حول الهضبة المقدسة ، يتوسطه باب صغير يشبه الباب الذى يتوسط أبواب السور ، نقوشه هى نفس النقوش ، حتى الأناشيد المكتوبة على العارضة التى تعلو هامة الداخل هى نفس الأناشيد ، وكأنك داخل إلى المعبد ذاته ، وليس بيت أحد الكهنة ، يتلو الباب باحة متسعة تصب بها أبواب الغرف جميعًا ، يتلوها جزء مرتفع يزيد عن نصف المتر فى مساحة مستطيل يمثل ثلث الباحة ، وفى حين أن الباحة مكشوفة فإن هذا الجزء مظلل بتعريشة تعلوها أفرع إحدى النباتات التى تجلب الظل والخضرة والرائحة الزكية إلى البيت .



الغرفة الشرقية هى غرفة الدرس وملاقاة

الأصدقاء ، أثاثها قليل لا يزيد عن عدد من كراسى الجريد ومنضدة صغيرة ، شباكها يطل ناحية الشمال ، على جدرانها العديد من الأدعية بالفلاح ، والعون من قبل أشمون وتحوت ، فى مقابلها حجرة تبدو سفلية بعض الشىء ، بها سرير مصنوع من الخشب المنجد بتيل وحلفاء ، يتوسطها موقد صغير ، على الأركان عدد من المشاعل والقناديل ، وثمة باب خلفى فى البيت حين يدلف منه الزائر يرى ساحة الأرض الخضراء أسفل الهضبة ، ولا يكاد ينتبه إلى الفرن المقام على جانب البيت الأيمن ، حتى يرى على الجانب الآخر موضعًا صغيرًا يمكنه أن يختفى فيه ليقضى حاجته ، إنه الكنيف هكذا قال مرشدى .

ظللت أتجول حتى وصلت إلى بيت من شدة انخفاضه لا يكاد يتضح من الأرض ، يحسبه الرائى طللا لبيت كان لأحد الرعاة فلم يهتم بتجديده ، قالت حاملة المفاتيح القدسية : « هذا بيت الخارج حور محب » ، قلت فلندلف إليه قليلا ، « غير مسموح » هكذا جاءنى صوته الذى خرجت منه الآن وللمرة الأولى طاقة من الجحيم ، ثم قالت حاملة المفاتيح

بحزن يناسب هيئة البيت « يا ولدى . . نعرف أنك من أجل هذا جئت ، لكن علينا النصيحة لك ، فهذا بيت لعن كبيرُ الكهنة صاحبه ، ويوم عودة الروح لأصحابها سيكون شاهدًا عليه » قلت وماذا عن ريشة ماعت ؟! قالت « حين يأذن أشمون للشهود تكف ماعت عن العمل » . لكن أشمون ما كان بحاجة إلى شهود ، فقط . . يحاسب الناس على حب قلوبهم للخير ، فكيف للكاهن الأكبر أن يعرف هذا ؟! كأن السؤال حجر سقط فى بئر من الصمت فحرك آلاف الشكوك ، وكأن صاحب هذا القبر أو البيت يُبعث من جديد فيرصد النجوم وهى تفصح عن موت الكهنة وتبدُّل الفراعين ، يُبعث ليجادل فى اللاهوت وأحكام الكهنة المقدسين ، وكأن رائحة الغضب صارت امرأة على قدمين « الكاهن الأعظم رئيس محكمة أشمون السفلية ، وعضو فى محكمة أشمون العلوية ، يوم يضع أشمون يديه على الأرض ومن فيها ، فهو شاهده والمتحدث باسمه بين الناس فى عهده ، فكيف لا يكون صاحب الكلمة فيمن عاشوا عصره » .

شعرت أننى أذوب فى بئر من الملح فلا صوت ولا فكر لاشىء سوى الموت ، يالهذا الصمت ، كيف يدلف بى إلى هذا الذل ؟ كيف أستسلم لمرشدى ، كيف ؟! هكذا صرخت وحين انتبهوا قلت : عظيم الكهنة سمح لى بالدخول وهو أعلم منا بما يريد ، ولو كنت مخطئا ماكان ليترك قدمى تطأ هذا المكان المقدس ، فكيف تمنعوننى ، وبدا على وجوههم أثر المباغتة فتلونت بالفحم واللهب ، وعقدت الألسن والقلوب ساعة ، تمتم على إثرها الرفيق الأكبر للرحلة « صاحب الملك أعلم بملكه ، كتب على نفسه الرحمة والعدل ، فدعوا القادم يتم عمله ، فسبحانه له فى ملكه شئون ، وليس لنا من أمره شىء » . ثم اتجه برأسه إلى الشمس التى أكلت رءوسنا ، وقال « سبحانك تجلت عظمتك واتسع ملكك ، نحن بعض عبيدك ، نؤمر فنطاع ، نؤمر ولا نأمر ، لك المُلك ياصاحب المُلك ، ولك الأمر يا صاحبه ، ولكهنتك العظام من بعدك ، فاغفر لنا خطايانا وسامحنا على جهلنا بك » . ساعتها لا أدرى كيف فتح الباب

الموصد دون أن نفتحه ، ووجدتنى أعيث فى المكان سياحة ، ما من مكان إلا والأناشيد والتسابيح تعلوه « مالك الملك ، يغير ولا يتغير ، يبدل أثوابه ولا يتبدل ، يمر فى السماء ليشرف برحمته على الملكوت ، سيد الأسماء وصاحب الثنايا ، لا تحصى عطاياه ولا تفنى ، باق ما بقى الوجود ، فى البدء كان وفى المنتهى يكون ، الكل خرج من فمه والكل إليه يعود ، كتب على النجوم علمه ، وشرح لبعضها بعض الصدور ، فمن حباه حباه تحوت بعض معرفته ، أُشْهِدك ، وأُشْهِد من لا يشهد لك قبل من يشهد لك إنى عبدك ، متطلع إلى بعض علمك ، راغب فى بعض فضلك ، فامنحنى من لدنك هبةً لا تكون لغيرى ، إنك ياأشمون صاحب الفضل والمنون ، صاحب المركب السماوى منذ البدء وحتى السكون ، آمين . . آمين » .



كنت كلما قرأت أذهل عن نفسى ، ولا أعلم متى بدأت ولا إلى أين انتهيت ، تلبستنى آلاف الشياطين والمردة ، فأخذت أحفر أسفل السور المطل أعلى

الهضبة ، فاصطدمت يدى بـ « دست أو برنية » فأخرجتها ، فإذا هى مفتوحة يطل منها بعض البردى فوضعته بين ثيابى وجلدى ، لاأعلم كيف خرجت ولا من أين ، ولا متى فارقتنى الحمى ، وما الذى وضع الأوراق أسفل مرتبتى ، هل كان أبى هو الذى أحضر الطبيب ، أم هم الذين جاءوا ليطببونى بأعشابهم . الشىء الوحيد الذى أذكره الآن هو مذاق هذه الأعشاب ، وتراتيل هذه الرحلة .

لا أستطيع أن أفكر بينـما أعانى بعض آلام الظهر ، فكيف تكتب وأنت تموت ؟!

كان السؤال يطل من عين الطبيب دون أن ينطق به ، فلا يبوح بما يغلفه من حزن على مريضه العنيد ، ولا يفصح عما يحتاجه من فرح به ، لكن ابتسامته كانت تأتى من أسفل حيث التاج والأورطى يحتضنان قلبًا يسع البشر جميعًا ، لم أكن أملك سوى أن تنبثق منى ابتسامة ، لأقول له « لو أننى توقفت ، فبالفعل أنا ميت ، وما أخافه حقا أن أنتهى من كتابة ما أريد ولا يأتى الموت ، ساعتئذ سأشعر حقا أننى مريض يطلب الموت الذى لا يجىء » . لم يكن هذا الكلام سيد الحديث بيننا ، لكنه الصمت والابتسامة المرتعشة وبعض الألق الخافت فى عينى ، الغريب حقا أن

الأشعة التى كانت تصدر منى أكثر ألقا من تلك التى صدرت من عينيه . بدا لأول مرة حزينا وربما أضعف مما تصورت ، لم يكن هكذا من قبل ، فما الذى حدث ؟

قبل أن يجىء كانت الممرضة التى ترفل فى الأربعينات من عمرها ، ترتب ملاءة السرير وبعض الورق المتناثر على المنضدة منذ أسابيع ، وأنا أقتات على ضوء الكهرباء المخنوق فى مصابيحه دون شعاع واحد أشعر بطزاجته ، هذا الصباح رفعت الستائر وفتحت النافذة ، وجاءنى هواء لم أشعر بطراوته منذ سنين .

انتهيت أمس من دورة التحاليل الأسبوعية ، أجهزة عديدة لا فرق إن قلت يوضع المرء بها أو توضع عليه ، مئات الأنابيب والخراطيم ، أجهزة تلفزيونية وحاسبات آلية لا فرق ، أشياء عديدة حين يراها المرء يصاب بالوهن ، وربما يشعر أنه ميت لا محالة ، لكننى اعتدت ذلك ، فلم يعد فى الحياة ما أخاف عليه ، الأشياء تتم فى صمت تام وبرودة

هائلة ، لا تساؤل ولا إجابة أو نصح ، فقط إشارات بسيطة ، وطاعة عظيمة .

ربما إذا قرأ شخص ما بعد فترة من الزمن هذا الكلام سيتصور أن الفقراء والمعدمين يعالجون هكذا دوما ، بالقطع سيكون مخطئا وربما سيعض على أنامله من الندم لأنه لم يحسن التفكير ، فالفقراء لا وجود لهم هنا ،وربما كان من المقدر لى أن أكون مع غيرى من الآلاف الذين يعانون الموت ، بين جدران تأكلها الرطوبة والنشع ولا يموتون . لكنها مديحة التى كانت أقل قسوة علىَّ منى عليها ، ففى المرة الأخيرة كانت هادئة ، وربما أكثر اتزانا وجمالاً مما عرفتها عليه ، حين فتحت الباب وجدتنى ملقى على الكرسى أمام الحامل ولا وجود لريشة واحدة على اللوحة البيضاء ، لا شيء سوى الأفكار التى تغلى وتتصاعد فى رأسى طيلة الليل ، تقدمت ببطء وطبعت قبلة كرفرفة العصفور الصغير على شفتى ، تنبهت إلى وجودها ، كانت أعضائى مشلولة ،

ولا رغبة لى فى تحريكها فوضعت ما أحضرت من طعام وويسكى ، وغيرت ملابسها ودخلت الحمام ، كنت قد عدت إلى ما كان فى رأسى من حمم تتصاعد ، لكننى بعد قليل وجدتها تدفعنى أسفل الماء ، لم أكن راغبًا فى الاستحمام ، لم أكن راغبا فى مباشرة الحياة، لكننى لم أستطع الصراخ أو الرفض ، فثمة رعشة كانت تزلزلنى وكأننى مصاب بالحمى ، فبالأمس كان أصدقائى معى يحكون عن « حور » ولم ترك حبيبته ، كان هذا الجزء يشغلنى فى حياتى ، لم ينسها يوما ولم يكرهها ، فلماذا تركها إذن ؟

حين خرجت كانت المنضدة مليئة بالطعام ، وكانت يدها لا تضع فى فمها بقدر ما تذهب إلى فمى ، تناولنا الشاى من « ترمسها » ككل صباح ، تناولنا الحديث عن حور وآن ، قلت إننى لم أجد فى أوراقه سببًا لتركه لها غير ما ذكره عن والده المتسم بالقسوة . حين رآه معها أول مرة ، نهره وأغلق عليه

باب البيت وأمره ألا يخرج منه ، لكنه ما كان يحمل فأسه ويجر أتانه فى الصباح حتى تتسلل أقدام حور - تاركة الباب مغلقا كما هو - إلى سطح البيت ومنه إلى الأشجار المجاورة ، قاطعًا عدة كيلو مترات حتى يلقاها هناك على ضفة النهر ، بجانب بحيرة تنمو عليها نباتات البردى والحلفاء . لم يذكر أكثر من أنها كانت على ديانة آمون وأن والدها أحد المتصلين بالفرعون ، هل كان هذا مكمن الخوف لدى والده ، وهل السلطة دائما مخيفة إلى هذا الحد ؟ لا أعرف . فحور إما أن يمر على حياته السابقة على المعبد ، مرور ضيف خفيف ما يكاد يجلس حتى يرحل ، وإما أن يتوقف أمام تفاصيل لا جدوى منها ، كوصف البحيرة ، وملابس آن ، ولون الصباح والألق الذى فى عينيها ، ورائحة أمه التى ما زالت تنبعث من كل شىء فى البيت ، تلك الرائحة التى ضمَّخت حياته ، فخرج يبحث عنها فى الخلاء ، حتى التقت عيناه بآن ، فتاة تصنع من الطمى عرائس وخيلا ، تصنع من الطمى بشرًا بلون الألق الذى فى عينيها ، كان يهيم

خلف الرائحة منذ الصباح ، يبحث عنها فى كل شىء ، حتى كلَّت قدماه من المشى . كان الوقت وقت الظهيرة ، والصيف صيف أبيب ، خلع ملابسه ونزل ليستحم ، لكن الماء جرفه إلى عمق البحيرة ، فكاد التيار أن يأخذه إلى حيث مجرى النهر المتدفق ، لولا تلك الصرخات الحادة التى شقت الفضاء كخط موسىً فى الورق ، صرخات أنثى لم تكتمل أنوثتها بعد ، فترك الرجال فى الحقول والمارة فى الطريق أشغالهم ، وانهالوا يقطعون البحيرة ركضًا وسباحة حتى انتشلوه ، ما أثار دهشته يومئذ أنهم تعاملوا معه على أنه شقيقها ، وأنها لم تنكر ذلك فاعتاد الذهاب واعتادت أن تجىء معه حتى حدود قريته ، ويبدو أن هذا المكان غير قابل للتغير منذ بدء الخليقة ، وحتى يبسط «أشمون» يديه على الأرض .

وكعادة البشر للآن ، بدأ الحديث ينتشر وأصبح التساؤل مادة للتخفيف من قسوة الشمس المحرقة ، كان الخوف يملأ قلوب الجميع، فغير مسموح للأشمونيين بالصراع هنا ، غير مسموح بالتصادم مع

الآمونيين ، فقد درج الآباء المقدسون على نصحهم : « إذا تنازعت أنت وغيرك على شيء فاتركه نه وسوف يهبك الرب أفضل منه » . وكانت ملابس آن لاتدل إلا على أنها آمونية من أسرة ترفل فى الثراء ، بينما ملابسه لا تدل إلا على أنه من أسرة وقَّعت ميثاقا أبديا مع الفقر .

يا للمأساة ! للأماكن طبيعتها التى لا تتغير ، ولا امتزاج فيها بين متنافرين ، سوى فى عقول الجدات ، حين يهدهدننا بالحواديت ، فلا يمكن لابن تاجر الماعز أن يتزوج الأميرة ، ولا يمكن لها أن تقنع الأمراء أنه واحد مثلهم ؛ بسبب ميراثه العظيم من الفقر .

بدا الحديث غير مقنع ولا محبَّذ لدى مديحة ، فتساءلت وهى تفتح زجاجة الويسكى ضاغطة على حروف الكلام « لماذا تركها حور ؟ » ، وكأننى كنت ظامئا لرائحة الكحول الذى بدأ ينتشر فى شراييني بنفس العنف ، فقلت « لأنه دخل المعبد » .

- لماذا ؟

كدت أقول لا أعرف ، لكننى تذكرت ما قاله عن دخوله المعبد : كانت يداه المشققتان كقطعة من الصخر تقبض على يدى ، وتجرُنى كبهيمة خلفه ، بينما قدماى تسأل الأرض ألا تتركها ، وكلما انتقلت خطوة كان رجاؤها يزداد ألف مرة ، فكرت أن أصرخ فيه ، لكن أنامله المطبوعة على وجهى منذ رآنى معها قبيل غروب الشمس عند الساقية فى أول القرية ، وكأن شيطانا تلبسه فنزل عن أتانه ، ولطمنى على وجهى ، دون مراعاة لوجودها معى ، فى البدء صرخت فيه ، لكن عصاه لم ترحمنى . حين عدنا إلى البيت قرر عدم خروجى مطلقا ، ولم يشفع بكائى ولا مجىء خالى ، ورغم أننى سمعته يعنفه فيذكره ببيتى وأمى التى ماتت ، فإنه لم يتراجع عن قراره ولم يعف عنى ، حين نام واشتد ظلام الغرفة شعرت أن كل شىء فى وجهى كاد أن يتحطم ، فحمدت الله أن أربعة من أصابعه فقط هى التى أصابتنى ، ولذا كنت أجبن من أن أصرخ ، فلو حدث هذا لكانت يده التى

طرقت باب المعبد كمطرقة حرب قد نزلت على رأسي .

قلت « إنه الخوف » ، وكانت الخمر قد بدأت تعمل تطويحاتها فى النفس ، ورأيتها تضحك فنهرتها ، لكنها استمرت قائلة « الفلاحون أجبن مَن على الأرض » . تذكرت يوم ضرب عمى الغنى أمى ، ولم يستطع أبى إدراك ثأره ، ويوم قال أبى « لو اتجوزت البنت دى ماترجعش البلد دى تانى » وكاد رأسي أن ينفجر إلى نصفين ، واحد يقول الخوف ، وآخر يصر على القسوة ، فلا بد أننا قساة بقدر ما نعرف . ربما أكون مثلهم يوما ما ، لكن هذه القسوة على أبنائنا أفضل من أن يقسو عليهم غيرنا « أدعى على ابنى وأكره اللى يقول آمين » كلمة أمى المجيدة . لكن مديحة لم تنس فأعادت سؤالها :

- ليه حور ساب حبيبته ؟



كانت الخمر قد اشتعلت إلى أبعد مدى فوجدتنى أقول « حور ما كانش له فى الستات ، استريحتى » ،

وبينما كان ضحكها يتزايد فى أذنى كان الدم يغلى فى عروقى ، فثمة شىء ما جعلنى أرتبط بحور، وشعرت أننى لم أكن واع مرة واحدة آن مجماعتى لها . حاولت أن تهدئنى قليلاً فقالت :

- بس انت قلت إنه شاف جسمها فى مرة من المرات .

نعم رأى جسدها . رآها عارية كعروس تخرج من البحيرة دعته إلى اشتهائها ، حاول كثيرًا ولم يحدث ، حاول أكثر لكنه رأى أمه التى لا يستطيع رؤيتها ، فانسحب خلف شجرة وظل يبكى ، ربما كانت أقوى منه ، لكنها سحبت ملابسها وتركته عاريًا كيوم أتى من بطن أمه .

كانت المقاطع تنز من فمى كجرح قديم عاوده النزف ، وربما بكيت ساعتها ، فوجدت يدها تهدهد علىّ ، وشعرت أنها تفتح أزرار قميصى وتبحث عن ماعت ، تبحث عن الطلسم المصكوك على صدرى ، فانتفضت كقط يرى ثعبانا يدخل بيته ، وكانت يدى

أكثر قسوة مما عرفت ، فدفعتها إلى الجدار ، طرحتها ولم أنتظر ، كالمجنون أمزق ملابسها وأثبت لها رجولتى ، كالمجنون ألعن حور وأدخل فيها وأخرج منها ، كالمجنون أريد أن ألملم العالم القديم وأقذفه ، حاولت ، حاولت .. انتصابٌ لأبعد مدى دون جدوى ، انتصاب موحشٌ . صهيلٌ وصرخات ، وتوسل إثر توسل ، رأيتها تبكى أسفل منى ، ورأيتنى أجاهد ، أحاول أن أقذفها بنجوم السماء كلها فلا تقبض يدى على شيء ، أحاول ، هل جف حابى ؟ أم أنه لم يفض مطلقا ، أم أن سيلاس بنى سدّه بداخلى ؟ انسحبت عنها ورأيتنى أبكى ورأيتها ترتدى ملابسها ، لم أستطع منعها وهى تحمل حقيبتها ، لم أقل شيئا ، لكنها هى التى قالت :

– على فكره أنا مش جايه تانى كفايه كده .



كنت مهزوما ، لكنها رأت وحشا ينتفض « أقسو عليها أفضل من أن تقسو على » ، انهلت ضربا عليها أقسو ... أقسو ... أقسو ، كما صرخت كانت

تشتد ، ضربات متتالية كأننى أهدم السد أو أطفئ النجوم فى السماء ، حتى لم تبق نجمة واحدة إلا وأطفأتها ، فجلست فى الركن أبكى . حين صَفَقت الباب خلفها كان كل شىء قد أصبح صامتا . وحين حضروا لم أرفض الذهاب معهم ؛ لأننى على الأقل لم أكن حيا .

ما كان لأحد أن يتخيل ذلك المصير الذى انتهى إليه أصغر كاهن فى الثالوث المعظم لمعبد أشمون ، حتى حور نفسه لو جلس يدقق فى آلاف النجوم ما كان سيتعرف على طالعه النحس فى ذلك اليوم . لكنها الآلهة تخط للبشر مساراتهم التى عليهم أن يكتشفوها بأنفسهم .

جلس يحدث تلاميذه فى ذلك الصباح عن مطالعة النجوم ومعرفة خرائطها ومساراتها فى السماء ، عادة قديمة لديه حين يمر طيف « آن » على وجهه ، فيجلس وكأنه يقرأ آلاف النجوم التى تطالعه ، سأل أحدهم عن نجم رآه يطلع من الغرب ، ويستقر فى الشرق ، نجم يغيب أحيانا ويظهر على فترات . ينبع فى الشرق ثم يختفى ليلمع بوهن فى الشمال ،ثم الجنوب ، ثم الشرق ثم .. ثم .. ويطلع الصباح دونما أن يعرف منتهاه . تذكر الليلات العظيمة التى

كان البرد يأكل فيها فرائصه ، ولا يعرف منتهاه ، قال ياأيها الفتى لا تجهد نفسك خلف هذا النجم ، فأوان معرفته لم يحن بعد ، سأل الفتى عن ماهية النجم ، فطافت « آن » بدثارها الجميل على وجه البحيرة ، وخلعت قلادتها فقال « هى ديانة تخرج من غرب حابى فى ستر الليل ، حتى تصل إلى الشرق فتبنى ملكًا ما بين الفراعنة والآشوريين ، لكن ملكها لا يدوم فتتشتت فى البلاد ، تارة يعلو نجمها فى الجنوب ، وتارة فى الشمال ، لكنه لا يدوم ، حتى يجيء زمان يتحدث فيه الحديد ، ويخرج منه الناس على الناس ، فيعود ملكهم إلى الشرق ويزهو نجمهم فيه ، لكن متى ينتهى ؟ .. لا أعلم » سأل الفتى عن موعد البزوغ الأول ، فخلعت آن زنارها وطفت على وجه الماء ، قال « يافتى حين ينتهى ملك «الأشمونين » ويتحد رع آمون ، سيخرج من استضافهم آمون فى أرضه عليه . يسرقون رعيته ، ويهربون فى الليل ، دينهم جزء من دينه ، وفكرهم جزء من فكره ، لكنهم

ليسوا أتباعه . حين يتحد النجمان الكبيران سيولد من بينهم نجم ، وحين يخفت ضوء المعبدين سيزدهر هذا النجم » . سأل الفتى : صف لنا من أين ؟ خرجت آن عارية تنز أعضاؤها بالعطر والماء المفضض على النهدين ، خطفت ملامح الكاهن وساحت فى الفراغ ، آلاف النجوم تترى على وجهه ، ومئات الخرائط والمجرات . صف لنا من أين ياسيدى ؟ . . لو قست ما بين أشمون وأشمون ثم قسمت على اثنين ، لكان المكان المعلوم ، هناك حيث يسقط ثدى « حابى » على أرض الغرب ، وتنبثق منه العيون .

ذهب النهار وكأن شيئًا لم يكن ، الليل لم يذهب ، نادت « آن » كعادتها حين تحط الشمس رحالها ، وترتل النجوم أناشيد بزوغها الملكى ، كفتاة تخرج من البحيرة منداة بالضوء ، وكإله رضيع تتفتح عنه زهرة اللوتس ، سمع حور نداءها فلملم أشياءه ، وذهب يلبى النداء فى صحو آب العظيم ، قاطعا بهو المعبد الأمامى كرمح أطلقته راحة محارب قوى . منذ

أيام والعلة لم تفارقه ، لكنه اليوم يشعر بنفسه ريشة يحركها النسيم ، خمسون مترًا بينه وبين الدرج حتى يرتقى أعلى قمة للمعبد ، حيث صومعة الرصد التى بناها المقدس « راح نخت » ، خمسون مترًا والظلمة تلف الأرض ، بينما السماء صدر عروس محلى بآلاف القلائد وعقود اللؤلؤ الفضية ، خمسون مترا لم يعقه عن قطعها سوى صمت العجوز « راح نخت » ، ما الذى أخرج العجوز المقدس من بيته الآن ؟ ولِمَ ينادى فى وقت لا أنصت فيه سوى لنداء السماء ؟ كانت أساريره - رغم ما ارتسم عليها من ابتسامة جميلة لتلميذه الصغير - تدل على أن الأمر جلل . قلت « لا يُخرج الأب المقدس سوى أمر لا يقوم به سواه » ، زادت الابتسامة رقة . ووضع ذراعه النخرة فى ذراع تلميذه ، وأخذا يقطعان ما بقى من الخمسين مترا . أهناك ما يستدعى خروج المقدس العظيم « راح نخت » فى العالم ؟ « لا يمكننى أن أصف فرحتى بك وبما أنجزت من علم مقدس ياصديق النجوم . ولا أستطيع أن أنسى وأنا أحدثك أنك تلميذى . وابنى الذى لو كان لى أن أنجب ما تمنيت أفضل منه ، كما

لا أنسى سيدى ورئيسى المقدم علىَّ ، وصاحب الكرسى الثالث فى معبد أشمون ، لكن محبتى لك تجعلنى أحذرك من نفسك ومن علمك » .

هكذا بدأ « راح نخت » حديثه الودود الصارم ، وهكذا بدأ الخوف يسقط فى قلب « حور » ، بينما طالعه النحس يرتفع فى هامة السماء : « أفزعت قلبى يا معلمى ، وأطلقت لطائرِ الخوف العنان، هل فى الأمر شىء ؟ » ، « بعض خوف على النجم المتألق فى صفحة المعبد ، أرح قلبك ولا تجهد عينيك » .

– ما هكذا تحدث الكاهن المقدس من قبل .

– يا فتاى المقدس ، ليس كل ما نعلم يقال ، علمك كنز المعبد ، فلا تدع أعداءك يصعدون على جسدك ، أما هكذا تعلمت ؟!

– أفى الأمر ما يخالف التقاليد يا سيدى ؟

– لا تحدث تلامذتك يا « حور » بما تعلم ، ولا حتى نفسك ، فالعلم هبة تحوت ، فلا تخنه بالحديث به .

- لكننى لم أفعل ، وليس هذا ما يقلق الكاهن المعظم .

كان الدرج قد انتهى وكانت صفحة السماء أبهى من وجه البحيرة حين خرجت آن منها .

- أنت تعلم أن الكاهن الأكبر يحبك ويخاف عليك ، وتعلم أنه يقدر علمك ورجاحة عقلك ، لكننى اليوم رأيته غير راض عنك.

كان النجم الذى يتابعه « حور » منذ ليالٍ مضت يكاد يطير فى وجهه الآن ، لم يره ساطعًا هكذا فى صفحة السماء من قبل ، قال : أترى هذا النجم يا سيدى ؟ كانت يده تشير إلى أعلى المعبد بالضبط ، فدقق الكاهن العجوز ودقق ثم قال : هذا نجمك يا حور . فابتسم حور بوهن ثم قال : لو أننى غير مؤمن لقلت بما تقوله إحدى الديانات فى الشرق الأقصى ، لو كنت على دينهم لقلت إن هذا النجم متناسخ معى ، نجم من تحل روحى فى جسده بعد خمسة آلاف عام ، وجه شاحب وعود نحيل وأيام

قليلة وعلة دائمة ، نجم أخذ نجمى منه السطوع وأخذ من نجمى البقاء ، سوف يبقى أكثر مما يُظن ، وسوف يرتبط نجمه بنجمى حتى لا يعرف الناس أيهما نجمى وأيهما نجمه . كلانا سيبقى لكننى فى الخفاء وهو فى العلن .

كان وجه الأب المقدس أكثر شحوبا من النجم فى تلك اللحظة ، بل إن علامات الدهشة - التى قد تصل إلى حد اتهام حور بالجنون - بدأت ترتسم على وجهه ، لكنه سيطر على خوفه وقال : لا تصعد إلى المرصد ثانية يا حور . كان الأمر أشبه بسكين سقطت من مكان علٍ على كبد متفتت ، هذا الكاهن مهما بلغت درجة مودتى له هو أحد مرؤوسى ، فكيف يوجه لى أمرًا بكل هذه الصرامة ، لا أظنه نسى الأمر . . . فما الذى حدث ؟! حين استدار إليه بعين مليئة بالدهشة والفزع ، كان العجوز قد طأطأ رأسه وقال بحزن من يذبح ابنه بيده « هكذا قال الكاهن الأكبر اليوم » . قال حور « منذ زمن وأنا أشعر أن

نجمى يتضاءل ، أشعر به ولا أراه ، ليتنى كنت أعلم . . .» .

- أصبح كلامك كثيرًا عن ما تعلم يا حور ، حتى كاد المعبد يفتن بك وبحديثك عن نهاية الأشمونين ، لم يتجرأ أحد بهذا الحديث من قبل ، ولا أظن .

كان الغضب المشمول بالحزن يغلى فى جسد حور فقال :

- لأنهم علموا شيئًا ، فالأمر جد خطير يا سيدى .

- ربما ، لكن الحديث عن شئون المعبد لا تكون ياولدى سوى مع الكاهن الأكبر ، ولا أظنه يريدك أن تتحدث فيها .

كان النجم قد شحب إلى أبعد مدى كأنه استعد للموت فقال حور : - إذًا فلأحدث الكاهن الأعظم نفسه .

- أنت وما ترى فأمرك بيدك ، وللكاهن الأعظم عيون تفوق عدد الرمل والنجوم ، فلا تتحدث بأمرك حتى مع نفسك .

وكأن السماء أطفأت فجأة . فحمل حور محب نظارته وعصاه وبردته ، وأخذ يسحب آلاف النجوم خلفه فلم تظهر طيلة الليل .

فى الصباح هبط الكهنة المقدسون إلى بيته « مولاى الكاهن الأكبر يريدك الآن » ، هكذا تحدث المقدم عليهم ؛ فخف « حور » فى سرعة البرق ، يضع رداءه الكهنوتى على جسده ويهرول معهم . لم تكن حالته الصحية تساعده على كل هذه الهرولة ، فدخل فى نوبات من السعال الطويل ، حتى وصل قدس الأقداس ممتقع اللون كسحابة صيف عجوز ، كان الكاهن الأكبر عائدا من البحيرة المقدسة للتو ، حين رآه هدهد على كتفه وقال « هؤلاء الخدم لا يرحمون ، ينفذون فقط ما يؤمرون به ، ورغم أنهم أقل الرتب الكهنوتية فى المعبد ، غير أنهم فى أرقى الدرجات لدى أشمون » . أدرك حور ما يرمى إليه كاهنه الأكبر لكنه لم يستطع أن يقاطعه . لم يستطع أن يجعل للصمت منحى غير الذى أراده الكاهن الأكبر .

« حور محب أصغر الكهنة سنا ، وأحدثهم عهدًا بالمعبد ، وصاحب الكرسى الثالث فيه ، ورئيس طائفة علم الحدثان - يخطئ ؟! هل يخطئ من منحناه كل هذا الشرف ؟ » .

كانت أعضاء حور تتحرك وكأنها تريد أن تقطع الصمت وتقول شيئا ما ، لكن الكاهن الأكبر قطع الطريق على محاولة التمرد مشيرًا بيده بالسكوت « أعرف ما تريد أن تقول ، لكن ليس كل الوقت للود ، ليس للمحبة مكان حين يتعلق الأمر بسيد الآلهة ، يمكننى أن أحكم عليك الآن بالزندقة ، أتدرى معنى الحكم بالزندقة ؟ أن أجهز مقبرتك خارج المحيط الأزلى ، وأغمس روحك أسفل الأرضين ، حيث الأفاعى والأرواح الشريرة ، لكننى لا أود لأنبل التلاميذ هذه النهاية » .



فى المساء جلس فى حجرة الدرس يكتب تقريره عن النجم الذى قبض عليه بالأمس ، مئات التقارير تمتلئ بها خزائن الكاهن الأعظم عن النجوم التى

رآها ، مئات التقارير ذهبت إلى الفرعون عن المعارك والحروب التى سيخوضونها ، مئات التقارير التى ساهمت فى رسم سياسة الأشمونين فى الجنوب ، وآلاف الرسائل جاءت لتعظيم الكاهن الصغير ، لكن لا شىء يشفع أمام مخالفة التقاليد ، لا شىء يشفع أمام إفشاء الأسرار القدسية ، لا شىء حتى الكرسى الثالث فى معبد أشمون ، قالها « راح نخت » وهو يسلى تلميذه المجد . لابد أن الأمر كله كان يثقل « القلزم » على صدره ، فكيف يبلغه بأن منصبه قد ضاع منه الليلة وما عاد له أن يصعد الهضبة المقدسة ( بيضة الإله ) كى يجلس فى حجرة الثالوث المقدس « هذا أمر الكاهن الأعظم يا بنى » ، « لأجل من » ، « لأجل أشمون العظيم » .

- أترانى مهرطقًا يا أبى .

- إذا علم العامة بما علم الخاصة ، حدث اللغط ، وتاهت العقول .



- هل ذنبى أننى . . .

قاطعه العجوز قائلا : ذنبك أنك أفصحت ،

والإفصاح موت ، والعامة تعتقد فيك أكثر مما يعتقدون فى غيرك .

- هل هذا جزائى .

- لا أدرى ، لكنك تعلم أن الكاهن الأعظم وخليفته الأكبر يهمهما الشأن السياسى كالدينى تمامًا ، قد لا أفكر أنا وأنت فى هذا ، لكن ذلك عملهما ، حتى أن الفرعون نفسه لا يفكر فى أمره أكثر مما يفكرون هم فيه .

- لكن ذلك لم يكن باد فى عينيه ، ولم يقل لى . . .

- يحبك يا حور ، يحبك ، فأنت طفله المدلل ، تلميذه النجيب ، عينه التى ترى وقلبه الذى يتحرك ، وما كان يستطيع أن يبلغك بنفسه .

شعر حور أن الحديث قد انتهى ، وأن الوهن يصهر أعضاءه كلها ، فجلس يفكر متأملاً الصمت الذى يضرب أركان المعبد ، الكل يعلم بحوادث القتل المنتشرة ، الكل يشير بصمت إلى شخص واحد وأعوانه المنتشرين فى الليل .

لا أحد يفتح فمه كى يكسر هذا الموت ، لا أحد لديه القدرة على إخصاب الأرض الظمأى ، لا قدرة لأحد إلا على التوتر والخرس . « آن » تبكى على حبيبها الذى لم يبلل بحيرتها بقطرة منه ، تلملم أثوابها فى أوراق البردى ، وحبيبها يضرب رأسه فى جذوع الشجر ، يوارى وجهه فى أوراقها وينسحب ليبكى ، يبكى ولا مجيب سوى الصمت .

فى الصباح كانت حجرة حور محب تمتلئ بالكهنة الأطباء ، أطباق من الأعشاب المطبوخة تفوح من فمه المعقود ، رجفات برد فى صيف أبيب ، وآن على البحيرة تبكى ، وحبيبها يأكله الخجل ، حبيبها يقطع المسافة وحيدًا إلى البيت ، رجفات البرد تشل أوصاله فيلملمه العائدون من الحقول ، قبر أمه هو الحمى ، صدرها هو الأخدود الذى عليه تنهمر الدموع ، لست سيد الفتاة يا أمى ولا حبيبها ، لست سوى حشرة علقت بأحشائها ، محض عود معطوب وسماء لا تنذر بقطرة واحدة ، أنا حابى الذى جف ، أنا الصمت الذى أصبح فتى ، أنا . . .أنا . . .

حين استيقظ فى المساء وجد الكاهن الأكبر بجانبه ، فأدار وجهه عنه ، لكنه شعر براحته التى ملأها الزمن بالتجاعيد تمسح العرق عن جبينه .

- أنا الآن هنا ، ليس بوصفى رئيس المعبد ، ولا الكاهن الأكبر ، أن بجانب تلميذ أحبه ، تلميذ أحبه فقط ، هل تذكر ، كنت منذ خمسة أعوام معلمك فى اللاهوت ، كم دارت بيننا مناقشات فى الأمسيات الجميلة ، كم تحدثنا عما تعلم وعما يجب أن تتمسك به ، حين تم اختيارى رئيسًا للكهنة رفعت اسمك إلى الكاهن المعظم فى الجنوب حتى تكون واحدًا فى ثالوث أشمون ، وحتى تجلس على مقعدى الذى تركته ، هل تذكر ، كانت أياديك عليهم بيضاء فى المعارك ، كانت قراءتك للنجوم هى الأفضل ، كان علمك يخدم أشمون أكثرمما يخدم العلم ، لكنك الآن تمارس العلم لذاته ، تمارسه لنفسك أكثر مما تمارسه لأشمون ، وأشمون لا يقبل أن يكون هناك شىء أعلى منه .

استدار حور بوجهه الشاحب نحوه وكأن عينيه المكللتين بالدموع تصفعان الكاهن الأعظم بقوة الحب الذى جمعهما ، فانحدرت دمعتان تشبهان الحجر من الكاهن الأكبر .

- ولدى ليس الأمر بيدى وحدى ، نحن المعبد الثانى يا حور، هل تعلم أننى أجبر على أشياء لا أحبها ، لكن أشمون يريد لنا ذلك ، وهذه مشيئته ، المعبد كله يا حور يتحدث الآن عن نهاية الأشمونين واتحاد آمون ورع وموت الفراعين بالصمت ، وعصر الحديد ، والناس الذين سيخرجون منه ، أتعتقد أن هذا لم يصل إلى الجنوب ، أتظنهم يسكتون على هذه الترهات. . . نعم أصدقك ، والكارثة أن الكل يصدقك ، ليتك كنت كاذبًا لمرة واحدة ، ليتك يا ولدى . . . أتعرف كم سيكلفنا هذا ، كم سننفق من السنوات والأموال حتى نمحو من الذاكرة ما قلت ، أنا نفسى لا أستطيع أن أجاهر بتلك الحقائق ، صدقنى يا ولدى أحاول حمايتك الآن ، وليس ما تظن ،

أحاول فقط أن أخفف أيديهم عنك ولا أجعلك من المنبوذين .

لو كان للموت أن يتحدث ما كان صوته سوى صوت حور فى هذه اللحظة ، حين بكى الكاهن الأكبر لملم خجله وأعضاءه على سريره المنجد بالتيل والبردى ، وقال : سامحنى يا سيدى ، أعلم ما تقول ، لكن قلبى الصغير لا يحتمل ، أريد أن أفصح عما أعلم وإلا سأموت همًّا ، أريد أن أتحدث حتى ولو مع نفسى ، فاسمح لى يا مولاى أن أسرى عن نفسى ولو على ورقى ، بعض الورق الذى لن يراه أحد غيرى . ورق أرجو أن يدفن معى فى مقبرتى حتى يكون شاهدًا علىّ بأننى بلَّغت وأنتم لم تريدوا السماع .

– ما من أحد فعل فعلك يابنى .

– أشمون سيسألنى عما فعلت بعلمى . أتحب أن ألقى تحوت وأنا جاحد برسالته ؟!

تحجَّر الكلام فى فم الكاهن الأكبر ، وضاق

صدره حتى بكى ، ثم قال « اصنع ما تشاء يابنى ، لكن لا تخرج من بيتك ولا يقرأ أحد ورقك » ، ثم استدار إلى الكاهن الوحيد الموجود معهم « راح نخت» : «أيها المبجل نخت أنت الشاهد الوحيد على هذا العقد ، فلا يخرج حور محب من بيته ، ولا يدخل أحد عليه ، وحدك الذى ترعاه ووحدك المؤتمن على سره ، لا أريد أن يخرج من رحمة أشمون ، ولا أريدهم أن ينالو منه » .

تمتم الكاهن بالرضا والتسابيح، وخرج الكاهن الأكبر ، وسُجن حور فى بيته ، لا يدخل عليه سوى المقدس نخت ، شهور ولت . . . وجاء برد الشتاء وليله الطويل المظلم ، وريحه التى تمزق الأوصال والأفئدة ، شهور وحور يكتب ولا يقرأ، لأن الإرادة شاءت أن يموت الكاهن الأكبر ، ويخلو المكان المقدس فيعتليه أكثر الناس كراهية لهما ، فما أن تمت مراسم الدفن والتحنيط ، حتى كان « حور » لاحقًا بالروح إلى جوار معلمه وكاهنه الأكبر . بالروح فقط لأن الجسد حين أتى الخدم المقدسون للقبض عليه

وجدوه باردًا كلوح الثلج ، باردًا كليل الشتاء وريحه التى تضرب الأبواب ، قال الأطباء إن العقارب لدغته ، وقال « راح نخت » إنه مات من الحزن ، لكن الكاهن الأكبر قال إنه مات منتحرًا بالسم ، ومن ثم تمت مراسم الحرق لهذا الجسد ، مراسم الحرق لرجل خرج على ناموس « أشمون » وقتل نفسه ، رجل هرطق وبلبل الأذهان ثم قتل نفسه ، فحقَّت عليه اللعنة . فتش الخدم المقدسون بيته لكنهم لم يجدوا ورقة واحدة بها خطه فهدموه ، واستدعوا « راح نخت » للمحاكمة ، ففُصل من منصبه ولزم بيته حتى مات بعد عام من صديقه .

كان الرفاق يبكون وهم يدلون بما يعرفونه عن موت الكاهن « حور محب » ، وكنت أبكى لأننى رأيت موتى وقد تجسد فى أعينهم ، فمنذ شهر لم يأتوا ولا أظنهم سيأتون ثانية .

## صدر للمؤلف

| | |
|---|---|
| يرفرف بجانبها وحده | شعر ١٩٩٨ |
| قصائد الغرفة المغلقة | شعر ٢٠٠١ |

## صدر مؤخرا عن ( أصوات أدبية )

٢٦٨ - مكاشفات شخصية .......... شعر : بهاء جاهين
٢٦٩ - أقانيم ............ قصص : اسماعيل البنهاوى
٢٧٠ - مرايا الذات الأخرى ........ رحلة : صبرى حافظ
٢٧١ - ديوان غزالى ................ كابتن غزالى
٢٧٢ - الصنم ............ رواية : أشرف الخمايسى
٢٧٣ - منازل القمر .......... قصص : سُمية رمضان
٢٧٤ - مواقيت البهجة ......... قصص : عزت القمحاوى
٢٧٥ - عضم خفيف .......... شعر : سعدنى السلامونى
٢٧٦ - حافة الود ............. رواية : نبيل نعوم
٢٧٧ - صانع الصدمات .......... قصص : أسامة خليل
٢٧٨ - السبعة ............... شعر : عادل عزت
٢٧٩ - عشرين سنة على سلم المترو .... شعر : حمدى عبد العزيز
٢٨٠ - ضرورة الكلب فى المسرحية .... شعر : جرجس شكرى
٢٨١ - نجع السلعوة ........... رواية : أحمد أبو خنيجر
٢٨٢ - طائر الفخار ............ شعر : محمود نسيم
٢٨٣ - كائنات هشة لليل .......... رواية : صلاح والى
٢٨٤ - قبض الريح ......... قصص : شحاته عزيز جرجس
٢٨٥ - أغادر جسدى ........... شعر : أحمد السواركه
٢٨٦ - بعدين ............. شعر : صلاح الراوى
٢٨٧ - الوفاة الثانية لرجل الساعات ...... رواية : نورا أمين
٢٨٨ - عبير الكمنجات .......... شعر : عزت الطيرى
٢٨٩ - نتهجى الوطن فى النور ......... شعر : سمير الفيل

٣١٧ - أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر .... محمد الشهاوى
٣١٨ - جليس لمحتضر .............. فريد أبو سعدة
٣١٩ - ١٩٩٩ ............. شعبان يوسف
٣٢٠ - رسام الأرانب .............. أحمد الشيخ
٣٢١ - طريق الحرير .............. يسرى خميس
٣٢٢ - كنز الدخان .............. فخرى لبيب
٣٢٣ - نعم .. أنا لص .............. مختار العطار
٣٢٤ - الوقوف على الأعتاب .............. يحيى شرباش
٣٢٥ - كأعمدة الصوارى .............. سمير درويش
٣٢٦ - شباك مظلم فى بناية جانبية .......... فؤاد مرسى
٣٢٧ - مرايا عطش .............. عماره إبراهيم
٣٢٨ - سيف الجلالة .............. أحمد الصعيدى
٣٢٩ - موت قارع الأجراس .............. محمد جبريل
٣٣٠ - رجلى أتقل من سنة ٦٧ .............. مسعود شومان
٣٣١ - كائنات ليل سرمدى .............. خالد السروجى
٣٣٢ - صمت الكهنة .............. صبحى موسى



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

وحدى أحمل الحقيقة عارية فى صدرى ، ولا أجرؤ على إعلانها ولا أحتمل إخفاءها ، فما الذى أصنعه حين أجلس على منضدة أشمون ، هل أصيح بهول ما أعرف أم أكتفى بالتحديق فى الجدران والصمت .. أنقذنى يا إلهى ، ياصاحب السمو فى الأعالى ، ويامدبر الحكمة فى عقل تحوت الحكيم . آمين .. آمين .



الشركة الدولية للطباعة

الثمن : جنيهان